وزارة الثقافة

القومية والعروبة
نقولا زيادة

رقمنة
وزارة الثقافة
Ministry of Culture

القوميَّة والعروبة

تأليف: نقولا زيادة

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٤٥

عن مكتبة الطَّاهر إخوان - يافا

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: نقولا زيادة
اسم الكتاب: القومية والعروبة
الطبعة الأولى: ١٩٤٥ عن مكتبة الطاهر إخوان - يافا

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: حنين خالد عِناية
الصف والتنضيد: شادية الخطيب
تصميم الغلاف: فاطمة حسين

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

القومية والعروبة

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

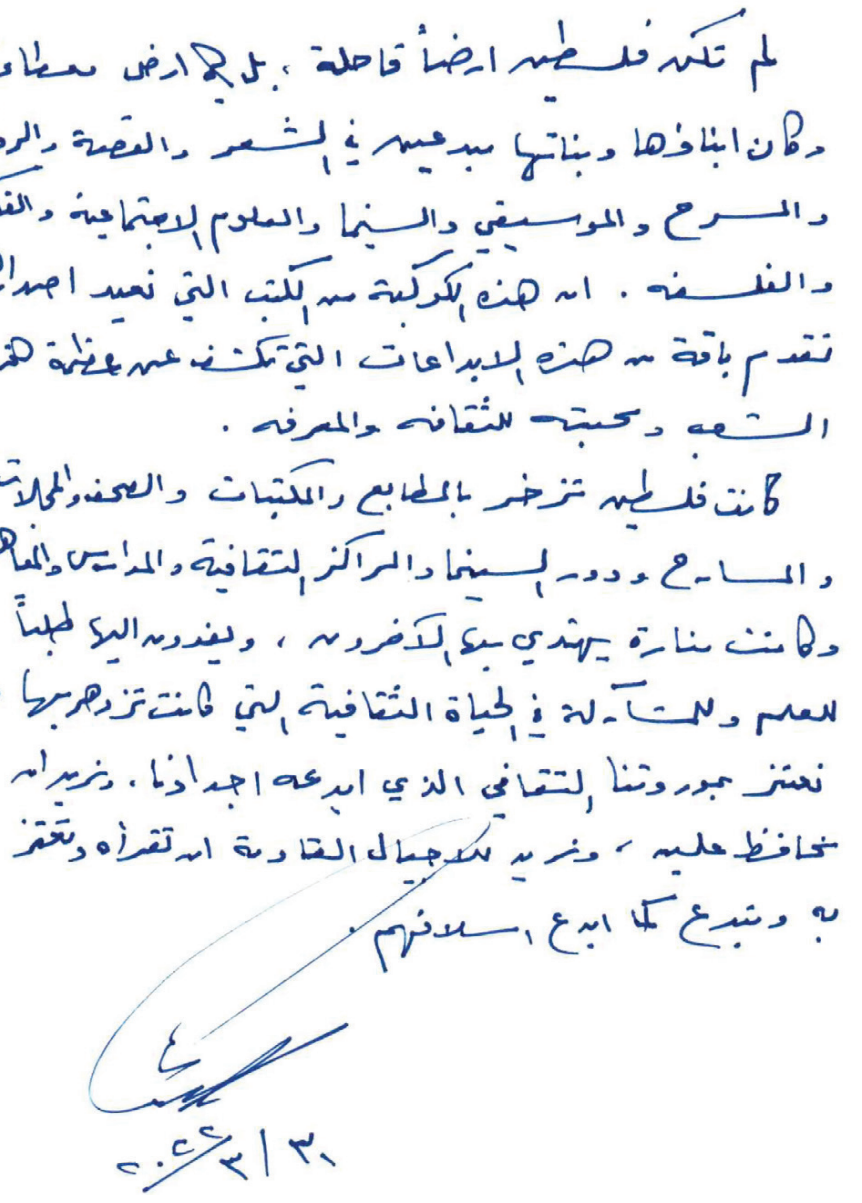
لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة ، بل كانت ارض معطاءة
وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية
والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر
والفلسفة . انه لمن الكرامة ان الكتب التي نعيد اصدارها
تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عمق وغنى هذا
الشعب وحبه للثقافة والمعرفة .

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات
والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد
وكانت منارة يهتدي بها الكثيرون ، ويفدون اليها لطلب
العلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها .
نعتز جميعنا بتراثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا . ونريد ان
نحافظ عليه ، ونريد لاجيالنا القادمة ان تقرأه وتعتز
به وتبدع كما ابدع اسلافهم .

٢٠٠٥/٢/٣٠

إهداء

...

إلى كلّ مـن علَّمني حرفًا في الوطنيّة

المقدِّمة

•••

كانت القبيلة والعشيرة أول وحدة اجتماعية رئيسية انتظمت أمور الجماعة كلها، فخضعت لسلطانها شؤونها السياسية والمعاشية والحربية، وكان كل فرد من افراد هذه الوحدة يقبل بما أجمعت عليه قبيلته أو عشيرته دون إحجام أو تردد. وكان افراد هذه القبيلة تجمعهم رابطة الدم والنسب ذلك لأنهم كانوا يعتقدون انهم متحدرون من جد واحد، فهم احفاده وسلالته. وقد اعتقدت بعض القبائل ان هذا الجد كان حيوانا. واعتقدت غيرها انه كان انسانا لكنه ارتفع الى درجة الابطال وكانت قبائل اخرى ترى انها متحدرة من نسل إله. والقبائل المتوحشة هي من النوع الاول، والقبائل اليونانية القديمة هي من النوع الثالث. اما النوع الثاني فخير مثل عليه القبائل العربية، على نحو ما وصلت الينا اخبارها في عصور الجاهلية وعلى نحو ما نعرفه من شؤونها اليوم في مواطنها الأصلية.

واعتقاد افراد القبيلة الواحدة بوحدة الاصل او النسب ربطتهم معا، فشعروا جميعاً بأنهم «قوم» تصيبهم السراء والضراء على حد سواء. فالفرد منهم إذا دهمته مصيبة أو نزلت به نازلة فزع إلى قومه يستنجدهم ويستجير بهم، والقبيل إذا راعه شيء انتظر من كل فرد ان يدفع عنه الاذى ويقف دون من يريد به الشر. والجماعة كلها تتقدم إلى عبادة آلهة مشتركة متحدة، سواء أكان هذا الإله جدها أو مجرد إله ترى فيه القوة التي تسيطر عليها.

هـذا الشـعور الـذي نلمسـه في هـذه العلاقـة بـين الأفـراد بعضهـم ببعـض وبـين الفـرد مـن الجهـة الواحـدة وقومـه مـن الجهـة الاخـرى هـو مـا يمكـن أن نسـميه بالقوميـة. ومـن هنـا يتضـح لنـا أن فكـرة القوميـة قديمـة قـدم الاجتـماع البـشري كلـه. أمـا أن هـذا النـوع مـن العلاقـة كان يسـمى «العصبيـة» فأمـر لا يقلـل مـن قيمتـه أبـدا.

وقـد كانـت هـذه القوميـة والعصبيـة تـسري عـلى اولئـك الافـراد الذيـن يخلصـون مـن قبيلتهـم ويلجـأون إلى قبيلـة أخـرى «يدخلـون» في حماهـا. ذلـك أنهـم يصبحـون جـزءاً مـن «الـكل» الجديـد الـذي اندمجـوا فيـه. فيشـاركون الجماعـة الجديـدة في كل مـا لهـا ومـا عليهـا. والشـعور القبـلي الـذي يكتسـبونه عـن طريـق الـولاء لا يقـل قـوة عـن شـعور الافـراد الأصليـين نحـو قبيلتهـم وهـو الشـعور المكتسـب مـن النسـب. وقـد فطـن ابـن خلـدون الى ذلـك فقـال «مـن البـين ان بعضـا مـن أهـل الانسـاب يسـقط الى نسـب آخـر بقرابـة إليهـم أو حلـف أو ولاء أو لفـرار مـن قومـه بجنايـة اصابهـا فيدعـي بنسـب هـؤلاء ويعـد منهـم في ثمراتـه مـن النعـرة والقـود وحمـل الديـات وسـائر الأحـوال. وإذا وجـدت ثمـرات النسـب فكأنـه وجـد لأنـه لا معنـى لكونـه مـن هـؤلاء أو مـن هـؤلاء إلا جريـان أحكامهـم وأحوالهـم عليـه وكأنـه التحـم بهـم. انـه قـد يتنـاسى النسـب الأول بطـول الزمـان ويذهـب أهـل العلـم بـه فيخفـى عـلى الأكـثر. ومـا زالـت الانسـاب تسـقط مـن شـعب إلى شـعب ويلتحـم قـوم بآخريـن. ومتـى وقعـت المناصرة والنعـرة عـن طريـق الـولاء اسـتغني عـن النسـب الطبيعـي إذ النسـب أمـر وهمـي لا حقيقـة لـه، ونفعـه إنمـا في هـذه الوصلـة والالتحـام».

ومـن المهـم أن نذكـر أنفسـنا أن هـذا اللـون مـن الشـعور القومـي هـو غايـة مـا تصـل إليـه القبيلـة البدويـة المتنقلـة الظاعنـة. فانـه لا مـكان معـين لهـا تسـتقر فيـه فتشـعر نحـوه بعطـف وحـب ناشـئين عـن ارتبـاط مصالحهـا بـه ارتباطـاً دائمـاً. ومـن ثـم كان أدب الجماعـات المترحلـة القومـي أدب قبيلـة وعشـيرة لا أدب بلـد مسـتقرة شـؤونه، مرتبـة أمـوره. والأدب اليونـاني القديـم والأدب العـربي الجاهـلي مـن خـير الامثلـة عـلى هـذا النـوع مـن الحيـاة. فالإليـاذة محشـوة تضاعيفهـا بذكـر هـذه العواطـف القوميـة القبليـة إذ أن الصـور التـي ترسـمها هـذه الملحمـة الكـبرى تمثـل الحيـاة اليونانيـة الاجتماعيـة والدينيـة للقبائـل اليونانيـة في دور تنقلهـا المسـتمر وحروبهـا الكثـيرة ومحاولتهـا الاسـتقرار، كـما تمثلهـا بعـد أن اسـتقرت واتخـذت المـدن مراكـز للحيـاة، والزراعـة والتجـارة أساسـاً للمعـاش. وتوكيـد يـدس يصـور لنـا قبائـل اليونـان في دور التنقـل والرحيـل في غـير موضـع مـن كتابـه.

أمـا الأدب العـربي الجاهـلي فيـكاد يكـون مقصـوراً، مـن هـذه الناحيـة، عـلى ذكـر مفاخـر القبيلـة والتغنـي بمحامدهـا وقـص اخبـار رجالهـا ووصـف ظعنهـا ورحيلهـا فهـو أدب بـدوي عصبـي قبـلي قومـي.

عـلى أن هـذا الـدور مـن الحيـاة لم تلبـث البشريـة أن تخطتـه، عـلى اختـلاف في أوقـات حـدوث هـذا التخطـي، إلى دور الاسـتقرار، فسـكنت الجماعـة بقعـة معينـة ارتبطـت مصالحهـا المعاشـية بهـا، فزرعـت حقولهـا وتفيـأت ظـلال أشـجارها وتجمعـت حـول ينابيـع المـاء فيهـا وأقامـت فيهـا لإلههـا هيـكلا ثابتـا واسـتثمرت معادنهـا وحجارتهـا في الصناعـة والبنـاء وعرضـت

في اسـواقها مصنوعاتهـا ومتاجرهـا وأحاطـت موطنهـا بسـور يحميـه ويقـي الجماعـة غـارة المعتـدي. وهنـا اتجـه شـعور الجماعـة اتجاهـا جديـداً، بالإضافـة الى مـا كان عندهـا قبـلا، وهـذا الشـعور الجديـد هـو حـب المدينـة أو القريـة أو مجموعـة المـدن التـي أقامـت فيهـا القبيلـة. وهـذا مـا يصـح أن نسـميه الوطنيـة أو الشـعور بحـب الوطـن. وهكـذا ارتبطـت القوميـة بالمـكان، ولكنهـا اقتـصرت عـلى رقعـة صغـيرة ضيقـة بـادئ الأمـر هـي المدينـة وأرياضهـا. وهـذا الشـكل مـن القوميـة الوطنيـة هـو الـذي نعرفـه في تاريـخ اليونـان لم وفي أول دور مـن تمصـير المـدن في الإسـلام وفي العصـور الوسـطى.

فالمدينـة اليونانيـة لم تكـن منطقـة سـيادتها تتجـاوز في الغالـب بضـع مئـات مـن الأميـال المربعـة. وقـد كانـت اسـبارطة، وهـي أكـبر هـذه المـدن جمعـاء، يـسري سـلطانها عـلى نحـو ثلاثـة الاف ميـل مربـع فقـط. ولعـلّ ضيـق المسـاحة هـذا يعـود إليـه الفضـل في نشـوء الـروح الوطنيـة في المـدن اليونانيـة. فقـد أتـاح ذلـك لليونـاني الاسـبارطي أو الأثينـي أو الكورنثـي أو الميغـاري، أن يتعـرف إلى كل جـزء مـن بـلاده والى الجماعـات التـي تسـكنها فأحـب الارض وسـكانها وخيراتهـا وشرورهـا ومبانيهـا فعاشـت في نفسـه وأصبحـت معالمهـا جـزءاً منـه.

أمـا المدينـة العربيـة في صـدر الاسـلام فقـد كانـت نقطـة رئيسـية تركـزت حولهـا حيـاة سـكانها، وانتقلـت عصبيـة القبيلـة الجاهليـة الى عصبيـة المدينـة. فنحـن نـرى البـصرة تتعصـب عـلى الكوفـة والفسـطاط تتعصـب عـلى القـيروان. لكـن هـذه العصبيـة صبغـت بصبغـة محليـة ولم نكـن كالـذي

عرفته المدينة اليونانية. لان المدينة العربية الاولى كانت جزءاً صغيراً من وحدة سياسة واجتماعية واقتصادية كبيرة شملت الامبراطورية العربية كلها. ومن ثم فلم تكن هناك وطنية ضيقة تقف عند حدود أرياض المدينة وبساتينها وضواحيها وقراها حيث ترابط جنودها وتقام قلاعها وحصونها.

وفي العصور الوسطى، بين سنة ١٢٠٠ وسنة ١٥٠٠ للميلاد، كانت المدينة وحدة اقتصادية وسياسية مستقلة في كثير من أجزاء أوروبا. فقد كان أبناء المدينة الواحدة، في عرف ما يصح أن يسمى أصول القانون الدولي، شيئاً واحداً في نظر ابناء المدينة الاخرى، حتى ان اي واحد من تجار مدينة في فلندرز كان يقبض عليه في لندن ويطالب بوفاء دين على أحد أبناء مدينته. وكانت مصلحة هذه المدن تتضارب إلى حد أن المدينة الإيطالية، كالبندقية مثلا، لم تكن تمتنع عن عقد محالفة مع خصوم جنوة، الإيطالية، إذا رأت في ذلك مصلحة لها. والأفراد الذين كانت تضمهم المدينة الواحدة كانوا يرتبطون بربط المصلحة الاقتصادية والسياسية، ولكن لم يصلوا إلى الدرجة التي وصل إليها اليونان، هذا مع أنه لم تكن ثمة رابطة سياسية أكبر تضمهم وتجمعهم في مثل عليا مشتركة كما كانت الحالة في العالم العربي.

ويجدر بنا هنا، وقد أشرنا هذه الإشارة الموجزة إلى فكرة القومية والوطنية القبلية والمدنية، أن نلقي نظرة سريعة إلى العالم الشرقي القديم لنرى ما وصل إليه في هذه الناحية والذي نستطيع أن نقرره، بادئ ذي بدء، هو أن الجماعات التي تمكنت من تكوين وحدات

سياسية كبيرة، كان من المنتظر لها أن تتأصل فيها فكرة القومية والوطنية. فهي قد اتحدت سياسياً تحت سلطان ملك واحد، مثل مصر وأشور، واتحدت مصالحها الداخلية والخارجية، وخرجت من ديارها في فتوحها، تعبر عن قوة متحدة. ولكن أمرين أضعفا أصلا هذا الشعور وحالا دون نضجه، الأول أن الدين لم يكن واحدا لكل أجزاء البلاد والثاني أن الحكم كان فيها مستبدا مطلقا. وإذا تذكرنا أن الدين كان له في العالم القديم شأن كبير في الحياة، استطعنا أن ندرك الأثر الذي يتركه تباين العقائد في القطر الواحد في وقف نمو هذا الشعور الوطني العام. أما الحكم المطلق فقد جعل كل شيء في البلاد خاضعا لرغبة الملك الذي كان يهيمن على السياسة العامة ومقدرات الأفراد. وما لم يشترك الناس جميعاً في فهم الاسس التي تقوم عليها مصالحهم والمبادئ العامة التي تبنى عليها أعمالهم، لا يستطيعون أن يولوا هذه المسائل اهتمامهم الفردي، ومن ثم لا يمكنهم أن يشعروا بأنها لهم. وساعد على هذا الأمر أن المعرفة، على اختلاف أنواعها، كانت وقفا على فريق من الناس دون آخر واقتصرت على طبقة دون غيرها. وفي أغلب الأحوال كانت هذه الطبقة هم رجال الدين الذين احتكروا العلم لأنفسهم، فظل بقية الناس يعمهون في الضلال، فبعدت الشقة بينهم وبين فهم الأمور فيها صحيحا، فشعروا أنهم مكلفون بالقيام بواجبات مفروضة عليهم دون أن يشعروا بارتباطها بهم افرادا وجماعات صغيرة تتكون منها الوحدة الكبرى.

ونحن إذا أردنا أن ندلل على صحة هذا الأمر وجدنا ما نريد حتى في التاريخ الحديث، في روسيا القيصرية. فالروس الذين لم يكونوا يشاركون

القيصر وبطانته فهم السياسة العامة. والمسائل المتصلة بحياتهم كانوا يحسبون أنفسهم مسخرين للسلطان القوي ولا يرون لهم في ذلك مصلحة قط، فلم يتمكن فيهم شعور قومي وطني يشمل الشعب بأكمله.

على أننا، ونحن نقرر هذا، لا نريد أن نمر بمصر القديمة دون أن نشير إلى حادثة فردية فريدة في بابها في تلك العصور هي قصة سنوحيت. فر هذا الرجل من مصر في القرن العشرين ق.م. لأنه اطلع على سر خطير من أسرار الدولة، وعرف أنه إن بقي وشاع أمره قتل. والتجأ سنوحيت إلى سورية الجنوبية وعاش بين قبائلها وأصهر إليهم واحترم وكرم. لكن في أواخر أيامه عاوده الحنين الى الوطن، وبلغ الملك خبره، فعفا عنه واستدعاه. وعاد سنوحيت إلى مصر، وقد خلف لنا صورة جميلة لشعور رجل نحو بلاده وتحرقه إلى العودة إليها.

كان من الطبيعي أن يتطور الشعور الوطني الذي لمسناه في المدينة اليونانية القديمة بحيث يشمل قطراً واحداً او بلاداً كاملة ترتبط جماعاتها ببعض برابط المصلحة، أو الدين، أو اللغة، أو الأدب، أو التاريخ، أو بكل هذه الروابط مجتمعة، لولا أن ثلاث حوادث تاريخية هامة غيرت هذا الاتجاه. هذه الحوادث هي قيام الإمبراطورية الرومانية وانتشار النصرانية في أوروبا وظهور الإسلام.

كانت الامبراطورية الرومانية غاية التنظيم السياسي الذي وصل إليه العالم القديم. فقد فتحت روما غرب حوض البحر المتوسط وشرقه، وضمت كل الشعوب القاطنة على شواطئه إلى سلطانها. فكانت القبائل

التابعة لها متباينة أصلا، مختلفة لغة، متباعدة صقعا، ليس ما يربطها ببعضها البعض إلا هذا الحكم والتشريع العام. وإذا أضفنا الى ذلك هذا التاريخ المختلف لكل من هذه الشعوب، أدركنا الهوة التي كانت تفصل بين الوحدات التي كونت الامبراطورية الرومانية. فشرقها كانت له ثلاث لغات على الأقل: اللاتينية وهي لغة الحكم والسياسة والقانون، واليونانية وهي لغة العلم والأدب والفلسفة، واللغات المحلية التي كان يتكلم بها أهل الأقطار المختلفة من آسيا الصغرى شمالا إلى مصر جنوبا. وغرب البحر المتوسط كانت له لغتان: اللاتينية للحكم والأدب واللغات المحلية التي كانت وسيلة التخاطب والتفاهم بين سكان فرنسا واسبانيا والمغرب الأقصى فيما بينهم.

كان ضم هذه الشعوب والاقطار عملا اداريا ضخما وتنظيما سياسيا له آثاره، الصالح منها والضار، لكنه من الجهة الاخرى لم يستطع ان يوجد روحا نستطيع أن تسمها «قومية وطنية». لقد كان ثمة شيء من هذا في إيطاليا نفسها، لكن هذا الشعور لم يتعد إيطاليا، بل لم يتح له، حتى فيها نفسها، أن يتبلور ويصقل بحيث يطلق عليه اسم الدولة الوطنية أو القومية. ذلك لان ايطاليا نفسها أصبحت، مع مرور الزمن، جزءاً من الامبراطورية مساويا لأي جزء آخر. وكل الذي نستطيع أن نقوله هو أن الأحوال السياسية والاقتصادية والحربية وصلت بالإمبراطورية الرومانية إلى أن أصبح كل رجل مقيم داخل حدودها يعتبر «رومانيا» من حيث رعويته (تم هذا سنة ٢٢ م). لكن هذه الناحية الرسمية لم تجعل من الناس الذين أقاموا داخل الحدود (رومانيين) وطنية وقومية. لأن الناس لا يعتنقون الأفكار والآراء القومية والوطنية بحكم

الأوامـر الرسـمية والنـشرات الملكيـة والقـرارات الوزاريـة.

وإذن فهـذا الشـعور الوطنـي القومـي الـذي رأينـاه ينمـو في المدينـة اليونانيـة، والـذي أملنـا لـه أن ينبعـث منهـا فينتـشر في القطـر كلـه ويشـمل سـكانه كلهـم، نـراه يقـف نمـوه وتطغـى عليـه فكـرة عامـة لم تتأصـل فيـه. ولسـنا نشـك في أنـه كان بـين الفكرتـين بعـض الخصومـة لكنهـا كانـت خصومـة هادئـة لأن النـزاع الفكـري سـبيله الكتابـة والقـراءة، ولم يكـن هـذان الأمـران متيـسر بـن لأهـل العـالم القديـم.

ومـن ثـم فنحـن لا نلمـس الا القليـل مـن آثـار الخصومـة بـين «الوطنيـة» و «الرومانيـة الامبراطوريـة». هـذا إذا تركنـا الحـروب والثـورات ضـد الحكـم الرومـاني جانبـاً.

والنصرانيـة ظهـرت في الـشرق وانتـشرت فيـه اولا ثـم عمـت الغـرب. بـدأت دعـوة خاصـة في الـسر والخفـاء ثـم لم تلبـث أن ذاعـت وكـثر معتنقوهـا، واشـتركت الهيئـات الرسـمية في نـشر مبادئهـا ونفوذهـا. فعمـت أوروبـا كلهـا بعـد أن سـيطرت في غـربي آسـيا وشـمال أفريقيـا. والنصرانيـة تعتـبر النـاس جميعـا أبنـاء إلـه واحـد، فـلا فـرق بـين رجـل وآخـر مـا دام الاثنـان يعتنقانهـا بقطـع النظـر عـن القطـر الـذي يسـكنه كل منهـما. وإذن فـكان النـاس يعتـبرون أنفسـهم تابعـين لفكـرة واحـدة عامـة وكنيسـة جامعـة، لا فـرق بـين فرنسـيهم وألمانيهـم وإيطاليهـم. وفي هـذه الحالـة نجـد أن الجماعـات تتمركـز مثلهـا العليـا واغراضهـا واهدافهـا حـول امـور شـاملة للـكل وتعاليـم اساسـهـا وحـــدة الشـعوب والأفـراد وانضوائهـم جميعـا تحـت قيـادة الكنيسـة. وهـذا الاتجـاه في تفكـير أهـل العصـور الوسـطى

مثـلا يحـول دون نشـوء روح قوميـة وطنيـة. لأن المـرء يعتـبر كل سـكان العالم ـ الذيـن يشـاركونه عقيدتـه - قومـه، ويـرى في كل بلـد يقطنـه هـؤلاء النـاس وطنـه.

وقـد رافـق انتشـار النصرانيـة في أوروبـا سـيطرة اللغـة اللاتينيـة وهـي إرث مـن الإمبراطوريـة الرومانيـة إدارة وتشريعـا. فقـد اتخـذت الكنيسـة الغربيـة اللاتينيـة لغتهـا، فنشرتهـا في مـدارس الاديـرة وكتبـت بهـا كتـب الديـن وصـارت لغـة الأدب والعلـم والتجـارة. وهكـذا كان للنـاس جميعهـم ديـن واحـد ولغـة واحـدة. وهـذه اللغـة الواحـدة زادت في ارتباطهـم بعضهـم ببعـض، فلـم يشـعروا بفـارق قـط.

لكـن يجـب أن نذكـر أن هـذه اللغـة اللاتينيـة كانـت لغـة فريـق مـن النـاس، لا أكـثر ولا أقـل. وكان هـذا الفريـق يمثـل طبقـة متعلمـة قليلـة العـدد ذات رئاسـة، دنيويـة أو دينيـة. أمـا الشـعب فقـد ظلـت قصصـه وآراؤه وآدابـه وتقاليـده الخاصـة بـه تتخـذ نفسـها سـبيلا للتعبـير يختلـف عـن سـبيل اللاتينيـة. فشـعراء الحـب الفرنسـوين أو الإسـبانيون أو الألمـان والشـعراء القصاصـون والمغنـون لم يكونـوا يسـتعملون اللغـة اللاتينيـة للغنـاء او القصـص، بـل كانـوا يغنـون ويـروون وينشـدون بلغـات محليـة هـي التـي كان جمهـور الفلاحـين وصغـار الملاكـين والتجـار والصنـاع يفهمونهـا ويطربـون لهـا وتثـير مـا كمـن مـن عواطفهـم وتهيـج نفوسـهم. وفي هـذه اللغـات المحليـة نجـد أسـاس اللغـات الحديثـة، وفي تطورهـا، كـما سـنرى، نلمـح تطـور الآداب الوطنيـة القوميـة.

أمـا الإسـلام، وهـو العامـل الثالـث الـذي يجـدر بنـا أن نبحـث عنـه، فقـد

انتشر له سلطانان في وقت واحد: الواحد سياسي والآخر ديني. ولما كان الاسلام دين اخوة عالمية، لا فرق فيه بين المؤمنين إلا بالتقوى، فقد صار أتباعه، من الناحية الدينية، اخوانا تربطهم رابطة واحدة، على تباعد أصقاعهم وتباين مناهج حياتهم واختلاف سبل معاشهم. فلم يكن من الممكن لهذه الجماعات التي لها أهداف متفقة ورئاسة واحدة أن تختلف اتجاهاتها السياسية. لكن لما انحسر سلطان الاسلام السياسي عن بعض الأقطار، مثل إيران، وظل سلطانه الديني هناك، أصبح العالم الإسلامي نوعين الواحد منه، مثل إيران، مسلم وله حكومة من اهله فارسية، والاخر، مثل العراق وسوريا ومصر، مسلم وحكومته عربية. وهنا نرى أن التطور الذي أصاب الأقطار الاسلامية من الناحية القومية يشبه، الى حد كبير، ما أصاب أوروبا النصرانية. هذا مع اختلاف في العوامل والنتائج التي ترتبت عليها، كما سيتضح ذلك من سياق البحث

وعصر النهضة الأوروبية، وهي التي يسميها أبناؤها بالرنسانس، هو نقطة الابتداء في عودة القومية والوطنية إلى الظهور، بعد أن وقفت أجيالا طويلة. ذلك لأن النهضة الأوروبية، عندما ننظر إليها نظرة صحيحة، نجد أنها كانت تقوم على ثلاثة أمور، أولها التحرر وثانيها التعرف الى النفس وثالثها التعبير عن النفس المكتشفة حديثاً. فَمِمَّ تحررت أوروبا في عصر النهضة؟

تحررت، أو حاولت أن تتحرر، من سلطان الكنيسة القوي المسيطر على الفكر، وتحررت من سيطرة اللغة اللاتينية التي كانت تستبد

بسبل التعبير عن الأفكار. والذي يتحرر من ربقة سلطان ينتقل حالا الى محاولة التعرف الى نفسه، والبحث عن روحه: يحاول ذلك الأفراد مستقلين ومحاولة الجماعة متضامنة. ومتى اهتدت اليه، او الى بعضه، تلا ذلك الخطوة الطبيعية في الطريق وهي الرغبة في التعبير عن هذه النفس التي اكتشفها الأفراد والجماعة.. وقد اتخذ التعبير في عصر النهضة كل السبل لتوضيح ما وصل إليه الناس. فالتصوير والنحت والقصص والشعر والعلم والمسرح كل اولئك وغير أولئك، لجأ اليه مختلف الافراد للإفصاح عما أصبح يخالجهم من شعور أو ما تنبض به قلوبهم من إحساس أو ما يجول في عقولهم من آراء. وهذه كلها تركت اللغة اللاتينية جانباً واستعملت، في غالب الأحيان، اللغات المحلية، التي كان المغنون والقصاصون يستعملونها قبل ذلك بقرون. وعندها أصبحت الآراء الجديدة والأفكار الثائرة والأدب القوي في متناول كل الناس، بدل أن تقتصر على فئة قليلة وطبقة محدودة. وأدرك الجمهور الكبير انه شيء، ورأى نفسه واضحة أمامه مجلوة له. فأحب كل ما يمت إليها بصلة، وشعر بأن ثمة فرقا بين صفع وآخر، لأن آمال الناس وقصصهم ولغاتهم وآراءهم تختلف بين بلد وبلد.

وهذا التحرر الذي بدأ في عصر النهضة وما رافقه من محاولة التعبير عن النفس باللغة الوطنية، هو أساس ما نشأ في أوروبا فيما بعد من شعور بالوطنية والقومية.

الدَّولة والقوميَّة
(إنكلترا وفرنسا)

•••

نعـرض الآن لناحيـة مـن تاريـخ الفكـرة القوميـة في أوروبـا كانـت فيهـا الدولـة المركزيـة المنظمـة أساسـا لقيامهـا وسـبيلا لتقويتهـا. وخـير مثـل يمكـن أن يقـدم في هـذه المناسـبة هـو الأثـر الـذي تركـه اسـتقرار الحيـاة السياسـية في إنكلـترا وفرنسـا في أواخـر العصـور الوسـطى في إيجـاد شـعور قومـي وطنـي في أهـل البلديـن.

لسـنا هنـا في معـرض التأريـخ لذينـك البلديـن في تلـك العصـور، ولكننـا نريـد ان نشـير الى حـوادث التاريـخ التـي أثـرت في الفكـرة. فالـذي يجـب أن نذكـره قبـل كل شيء أن إنكلـترا خرجـت مـن القـرن الحـادي عـشر الميـلاد وهـي وحـدة سياسـية وفي القـرن الثـاني عـشر وجـد النظـام القضـائي فهـا عـلى يـد الملـك هـنري الثـاني، وكان القصـد مـن هـذا العمـل مركـزة القضـاء للـضرب عـلى أيـدي أصحـاب السـلطة المحليـة. وفي القـرن الثالـث عـشر والرابـع عـشر ظهـر البرلمـان الإنكليـزي بقوتـه وعمـل عـلى توحيـد السياسـة الخارجيـة والادارة الداخليـة للدولـة بالاشـتراك مـع الملـك، أو بإرغامـه عـلى ذلـك عنـد الحاجـة. والقـرن الخامـس عـشر يمثـل في تاريـخ انكلـترا فـترة الاسـتقرار التـي تأصلـت فيهـا جـذور هـذه التنظيـمات المختلفـة في التربـة الإنكليزيـة، وبـدا أثرهـا في النشـاط الاقتصـادي، التجـاري والصناعـي، الـذي عرفتـه البـلاد في خاتمـة العصـور الوسـطى واوائـل الحديثـة. فاسـتطاعت

إنكلـترا أن تقبـل بـذور النهضـة الحديثـة وتغرسـها فتـأتي تمرهـا اليانـع في عـصر الازدهـار القومـي.

وقـد تكـون فرنسـا تأخـرت عـن انكلـترا قليـلا حتـى حصلـت عـلى وحدتهـا كاملـة، لان الاخـيرة هـذه كانـت تملـك جـزءا مـن تلـك. لكـن الملـك الفرنـسي، منـذ القـرن الثـاني عـشر، صـار شـديد العنايـة بحـصر السـلطان في يـده في كل مـا ينضـم إليـه مـن الإقطاعـات أو الإمـارات بحيـث أصبـح مـن الطبيعـي أن يلتفـت النـاس الى باريـس، عاصمـة الملـك، كلـما اعوزتهـم الحاجـة إلى أمـر مـن الأمـور.

بعـد هـذه اللمحـة الى البلديـن نرجـع الى حديثنـا الأصـلي لنتبـع العوامـل التـي أدت إلى قيـام فكـرة القوميـة في هاتـين الدولتـين في تلـك الأيـام.

وأول مـا يـبرز أمامنـا هـو اللغـة التـي لجـأت المهـا الدولـة المركزيـة في نقـل اوامرهـا ونظمهـا الى افـراد الشـعب الـذي ترعـى شـؤونه. ففـي انكلـترا كان أمـام الحكومـة ثـلاث لغـات اللاتينيـة التـي كانـت قـد خـسرت المعركـة خسـارة عامـة قبـل القـرن الرابـع عـشر، والفرنسـية، التـي كانـت لغـة النورمـان الفاتحـين، واللغـة الانكليزيـة التـي كانـت سـبيل الاتصـال بالشـعب. وقـد كانـت الفرنسـية لغـة البـلاط والبرلمـان بـادئ ذي بـدء. لكـن في السـنة ١٣٦٢ نجـد أن البرلمـان اسـتعمل اللغـة الانكليزيـة في اجتماعـه، وكان هـذا انتصـارا حاسـما للغـة الوطنيـة، وآخـر خطـوة في المرحلـة التـي كانـت قـد بـدأت قبـل ذلـك بأجيـال: إذ كتـب شـوسر بهـا قصـص كنتربـري، وكانـت القوانـين العامـة مكتوبـة بهـا.

وكان من الطبيعي أن تغلب واحدة من اللهجات الكثيرة المنتشرة في طول البلاد وعرضها على القطر فتوحد وسيلة التعبير الفردية. وهنا نلحظ ان انكلترا تسود فيها لهجة مركز الحكومة ورجال الاعمال واصحاب الحل والعقد وهي اللهجة التي جاءت من الأجزاء الشرقية الوسطى. أما فرنسا فقد غلبت عليها لغة دويل. ولما كان الأمن عندئذ مستتبا في البلدين فقد كثر تنقل الناس وسهل على هاتين اللهجتين أن تصبحا لغتي إنكلترا وفرنسا على الترتيب. وبانتصارها توحدت الثقافة في كل من البلدين لأن الثقافة صنو للغة وتبع لها واللغة وقف عليها.

وثمة أمر ثان يبدو لنا كبير الأثر في تطور الشعور الوطني القومي في ذينك البلدين هو شيوع مجموعة واحدة من الشرائع في القطر. وبذلك يتوحد التفكير القانوني والنظم القضائية.

وقد أشرنا إلى أن شيئا من هذا كان قد بدأ في أيام هنري الثاني في إنكلترا. وقد استمر هذا حتى بلغ غايته على توالي الأيام. والذي نود أن نلفت إليه النظر في هذه المناسبة، هو أن توحيد الشرائع في قطر ما يشعر أهله بأنهم جماعة مستقلة تختلف عن غيرها من الجماعات التي تعتمد على ما يغاير شرائعها وقوانينها وقضاءها؛ ذلك لأن هذه كلها تشمل مجموعة من العادات والتقاليد ذات مساس بالحياة الفردية الخاصة، فكلما شملها التوحيد زاد أثرها في ربط الأفراد ببعض بحيث يتميزون عن غيرهم كجماعة كبرى.

والدولة السياسية الموحدة تسهل على الناس رعاية مصالحهم الاقتصادية - زراعية كانت أم صناعية أم تجارية - في طول البلاد وعرضها، وتيسر لهم توحيد جهودهم في هذا الاتجاه فيترتب على ذلك نشوء سياسة اقتصادية موحدة، ونظام اقتصادي متفق في وجهته العامة. وهنا تعمل السياسة والمصلحة في توحيد الشعب وتوجيهه، فيزداد شعوره بالفرق بينه وبين الشعوب الأخرى. وهذا الامر يبدو لنا واضح الاثر بين المعالم إذا تذكرنا ما كانت عليه وجهة النظر السياسية والاقتصادية العامة في كل من إنكلترا وفرنسا في أواخر العصور الوسطى وأوائل الحديثة. فبينما تجد الأولى مصدر ثروتها المشتركة في تجارة الصوف وما يتفرع منها وطريق اتصالها المشترك بالعالم الخارجي هو البحر، تتجه فرنسا نحو تنمية زراعتها واراضيها وانشاء طرق المواصلات البرية التي تربط جميع اجزائها بباريس، وتكثر فيها الأسواق الموسمية لبيع ما تنتج أرضها والمقايضة بذلك مع ما تحمله اليها قوافل التجارة من جاراتها ومن غيرها.

والدولة في تشجيعها هذه الأمور كلها، بما تنشر في القطر من أمن وحماية، وما تعنى به من بعض التنظيم للجهود، تساعد على نشر ثقافة تتسق وهذه الحياة الجديدة. وقد كان التحرر الذي عرفته بعض البلاد الاوروبية من ربقة الكنيسة واللغة اللاتينية أقوى في إنكلترا وفرنسا منه في البلاد الأخرى.

واقتضت احوالهما أن تنتقل شؤون التعليم والثقافة الجديدة من أيدي رجال الدين إلى أيدي العلمانيين. وكانت الدولة. وخاصة القوية منها،

تشجع هذا، وتعمل على مساعدة القائمين بهذه الحركة، وهذا يمهد للآراء الجديدة والأفكار الحديثة سبل الانتشار في القطر. وتكون هذه مصبوغة بصبغة الحياة التي اعتادتها البلاد، فينشأ أدب يصور حياة الناس وإحساسهم وشعورهم. وهذا الأمر نستطيع أن نلمس أثره في الازدهار الأدبي الفني في إنكلترا أوائل القرن السابع عشر، وفي الحياة الفكرية الفرنسية في وقت قريب من ذلك.

ويتحتم علينا هنا ان نشير إلى أمر على غاية من الأهمية، ونعني به الحروب المعروفة بحروب المئة سنة بين إنكلترا وفرنسا والتي شغلت القومين من أواسط القرن الرابع عشر إلى أواسط القرن الخامس عشر. هذه الحرب نشبت بين دولتين كانت قد توحدت كل منهما واشتبكت مصالح الأفراد في كل منهما ببعضها، فكان أثرها أن قوت الروابط بين الانكليز كما متنت الأسباب بين الفرنسيين. وانفجر المرجل الوطني القومي فيها فطغى على كل ما عداه من ألوان الشعور، وتبلور عطف الانكليزي على انكلترا والفرنسي على فرنسا - وليس عبثا أن تعتبر الرواية الفرنسية قيام جاندارك، فتاة أورليان، وقت ولادة الأمة الفرنسية. ولم يكن شكسبير مبالغا لما اعتبر معركة أجنكور مظهرا للوطنية الإنكليزية وجعل هنري الخامس أول ملك وطني من ملوك بلاده.

ويتبع هذا العامل في قيمته الحروب التي دارت رحاها بين انكلترا واسبانيا وانتهت معركة الأرمادا. فإن هذه مثل أثر تلك - أنها أيقظت في الإنكليزي الشعور بأنه ثمة فرق بينه وبين الفرنسي والإسباني، كما أشعرت هذين بانهما غيره. وهكذا أوجدت هذه الحروب موضوعا

جديـدا للشـعراء والأدبـاء، فتغنـوا ببطولـة رجالهـم ووصفـوا شـجاعة المحاربـين مـن أهـل بلادهـم. وكان هـذا الـذي كتبـوه وصـوروه يسـهل نقلـه الى كل النـاس لأنـه مكتـوب باللغـة التـي يفهمهـا كل فـرد منهـم.

ولـولا أن الدولـة كانـت قـد سـيطرت عـلى كل مـوارد البلـد وسـيرت رجالـه في جهـة واحـدة لمـا أمكـن لهـذه الاحـداث ان تيقـظ هـذا الشـعور الوطنـي.

وكان آخـر مـا أدتـه الدولـة في سـبيل تنميـة الشـعور القومـي في انكلـترا وفرنسـا هـو أنهـا جعلـت الكنيسـة في هذيـن القطريـن كنيسـة وطنيـة، وخاصـة في الاولى منهـما. فقـد سـبقت الثانيـة بمـدة طويلـة. ذلـك أن صيرورة الكنيسـة وطنيـة كان معنـاه القضـاء عـلى آخـر مـا يربـط النـاس بغيرهـم كأفـراد، وإتمـام العمليـة. التـي مـن شـأنها أن تميـز الجماعـة الواحـدة عـن الاخـرى. إذ أن معنـى هـذه الحركـة هـو ان تسـتعمل اللغـة الوطنيـة في الكنيسـة أيضـا وهـذا مـا رمـى إليـه المصلحـون الدينيـون في مطلـع العصـور الحديثـة.

ونحـن إذ ننظـر الى هـذه المسـائل التـي عرضناهـا - توحيـد اللغـة وتوحيـد الشرائـع وتوحيـد المصلحـة والثقافـة الجديـدة والحـروب وجعـل الكنيسـة وطنيـة - ونذكـر أثـر الدولـة فيهـا كلهـا، يتضـح لنـا إلى أي حـد نقلـت هـذه الأمـور الجماعـة مـن الفكـرة العالميـة التـي ورثتهـا عـن العصـور الوسـطى إلى الفكـرة القوميـة الجديـدة. فقـد أصبحـت الجماعـة التـي تسـكن بلـدا واحـدا تشـعر أنهـا تتكـون مـن أفـراد متشـابهين فـما بينهـم ومختلفـين عـن غيرهـم، أي أنهـم «أمـة» لهـم غايـات وآمـال ومثـل عليـا مشـتركة مرتبطـة كلهـا بقومهـم ووطنهـم.

فلسفة الفكرة القوميَّة

•••

لا يتسع المجال هنا لدراسة الفكرة القومية وتطورها، لكننا نرى أنفسنا مضطرين إلى الإشارة إلى هذه الناحية قبل أن ننتقل إلى دراسة الدولة التي هي نتيجة لانتشار فكرة القومية بين أفراد الشعب.

ومن الممكن أن نجد في كتابات عدد كبير من المفكرين في العصور الحديثة اشارات إلى القومية والوطنية مثل مكيافيللي وهوبز وغيرهما، لكن المفكر الذي يرجع إليه الفضل في توضيح الأسس التي تقوم عليها الوطنية هو روسو.

كانت نظرية هوبز أساسها أن الدولة قوامها أمران: المصلحة الفردية أولا والخوف من تضارب هذه المصالح في المجموعة التي تتألف منها الدولة ثانيا. وكان عمل الدولة، في رأيه، هو التوفيق بين المصالح المتضاربة وتأمين السلام للساكنين في كنف الدولة. ولن يتم هذا إلا إذا كانت السلطة كلها بيد الحكومة.

وقد رأى روسو أن هذه الدولة التي ارتآها هوبز ينقصها الوحدة الادبية (الخلقية)، التي كانت في رأيه (روسو) صفة ضرورية الوجود في الهيئة المشرفة على شؤون الناس والمهيمنة على أمورهم.

فما هي العناصر التي تتألف منها هذه الوحدة الادبية (الخلقية) وما هي الأحوال التي تيسر وجودها؟ وقد كان جواب روسو على هذا بأن السعي وراء هدف مشترك هو الأمر الذي يكسب الجماعة أو الدولة هذه الصفة الخلقية، على أن يكون الهدف المشترك هذا هو

خير الأفراد كلهم، الذين تتكون الجماعة منهم، وعلى أن تكون الإرادة العامة هي التي تعين السبيل. فالوحدة الخلقية المرجوة هذه تم بإرادة عامة للجماعة الحرة بحيث ترمي نحو الخير للجميع. وعندها يرتبط الأفراد ببعضهم بدافع الإخلاص العام لا بدافع الخوف.

ويترتب على هذا أن نسأل أنفسنا مع روسو عن الأحوال التي تيسر لمثل هذه الجماعة أن تنتظم نفسها قوة. وهنا يسعفنا روسو بالجواب. فهو يرى أنه من الضروري توفر شرطين لقيام مثل الجماعة التي نطلبها. الأول أن تتوفر بين أفرادها الشؤون المشتركة بحيث يرون أنها تستحق أن يقدموها على منفعتهم الخاصة. والثاني أن يكون القانون الذي تسير الجماعة بموجبه من وضعها. ومما قاله في توضيح الأمر الأول «إذا كان تصادم المصالح الخاصة قد جعل قيام الجماعة ضروريا، فإن اتفاق هذه المصالح هو الذي جعل قيامها ممكنا. فالرباط الاجتماعي هو نتيجة لوجود العنصر العام المشترك في هذه المصالح المختلفة فلو لم يكن ثمة نقطة تلتقي كلها عندها لما أمكن وجود الجماعة. وحكم الجماعة يجب أن يكون أساسه الوحيد هذه المصلحة العامة المشتركة».

أما بشأن الأمر الثاني فيرى روسو أن القانون يجب أن يضعه الشعب على اعتبار أنهم افراد هم قوام الهيئة الحاكمة. وعندها تكون الشرائع من وضع جماعة حرة فرضتها على نفسها بمحض إرادتها وهي تتمتع بحريتها الأدبية.

يتضح لنا من هذا الذي لخصناه، ومن أشياء أخرى يضيق المجال عن تتبعها، أن روسو كان يرى أن العلاقات بين الفرد والجماعة أساسها شيئان المصلحة العامة والاشتراك في تقرير الأمور. وهذا هو الذي سماه روسو الوطنية. وهذه الوطنية تشمل الجماعة السياسية، بحيث تكون المانا عميقا تتأثر به حياة المواطن فتصبح عواطفه ومسؤوليته الخلقية ومصلحته الشخصية وحتى محبته لنفسه مرتبطة بها ومعتمدة عليها. ويختم تحليله لهذه المسألة بقوله: « ومن المؤكد أن أعجب ما ظهر من الفضائل كان من نتاج الوطنية - حب الوطن».

وهنا نضع اصبعنا على جوهر الفكرة القومية. والذي خرجنا منه، في حديثنا عن روسو، أمران أولهما أن هذا الخير العام الذي تناوله لم يقصد به الناحية المادية وإنما عنى به الوعي أو الإدراك بأن هناك إرثا مشتركا من الماضي وواجبا مشتركا للمستقبل. فقد قال: «إن عبقرية الشعب وشخصيته وأذواقه وآدابه وإنما تتألف من عادات وتقاليد قوية. وهذه هي التي تشعر الشعب بوجوده وماهيته ومميزه عن غيره، كما أنها هي التي تملأه بالوطنية القومية التي تعتمد على عادات لا يمكن تغييرها.

وأما الثاني فخلاصته أن القول بأن السلطة يجب أن تكون معبرة عن الإرادة العامة معناه الديمقراطية وتقرير المصير. إذ لا سبيل إلى تحقيق الوطنية على ما فهمها روسو وبشر بها إلا إذا استمتع اتباعها بامتيازات وقاموا بواجبات كانوا هم مقرريها والقادرين على تصريفها. وقد قال

في هـذا: «أنريـد مـن عامـة الشـعب أن يتحلـوا بالفضائـل؟ إذن فلنبـدأ بحملهـم عـلى حـب بلادهـم. ولكـن كيـف يمكنهـم أن يحبـوا بلادهـم إذا كان نظرهـم إليهـا مثـل نظـر الأجانـب إليهـا وإذا كان كل مـا ينالونـه منهـا مـا لا تمنعـه عـن أي شـخص آخـر؟ وتصبـح الحالـة اسـوأ فيـما لـو أنهـم لم يتيـسر لهـم الأمـن المـدني وإذا كانـت أملاكهـم وحياتهـم وحرياتهـم تحـت رحمـة الأقويـاء دون أن تكـون لهـم المقـدرة بـأن يلتجئـوا إلى القانـون أو حتـى السـماح لهـم بـأن يفعلـوا ذلـك».

لم يكـن روسـو أول مـن وضـع نظريـة محكمـة في القوميـة فحسـب، ولكنـه وضـع الأركان الأساسـية لربـط القوميـة بالديمقراطيـة. ولذلـك كان أثـر روسـو كبـيرا في الحـركات التـي قامـت في القـرن التاسـع عـشر. فدعـاة القوميـة ودعـاة المشـاركة والمسـاواة السياسـية اسـتمدوا مـن آرائـه ونظرياتـه. وقـد عمـل عـلى انتشـارها أن الثـورة الفرنسـية سـارت عـلى مبادئـه لمـا تألبـت أوروبـا عـلى فرنسـا. فـكان ثمـة مجـال للأفـكار التـي تعظـم الوطـن وتقـوي الشـعور القومـي بـأن تعتنـق ويناضـل عنهـا، وحملتهـا الجيـوش الفرنسـية معهـا فذاعـت وانتـشر أمرهـا.

القومية والدَّولة في القرن التَّاسع عشر
(ألمانيا وإيطاليا)

•••

في درسنا لتطور القومية في انكلترا وفرنسا رأينا أنها كانت نتيجة لوجود دولتين عملنا على ايجاد امة وتبع ذلك قيام روح قومية. على أن هذا السبيل لم يكن عاما، بل الغالب أن يكون قيام الروح القومية وانتشارها باعثا للأمة على تحقيق وجودها السياسي وكيانها الدولي، فتصبح دولة موحدة والامثلة على هذا النوع من التطور كثيرة. لكننا سنقتصر على درس الحركة القومية في ألمانيا وإيطاليا لترى كيف تم للبلدين توحيدها السياسي. ونود، بهذه المناسبة، أن نذكر القارئ بأن انتشار الروح القومية في القطرين وتحقيق الوحدة السياسية في الدولتين كانا متعاصرين، وهما من نتاج القرن التاسع عشر.

ألمانيا

جاءت الروح القومية في ألمانيا متأخرة عنها في إنكلترا وفرنسا والولايات المتحدة، حتى وفي كثير من الام الاوروبية الاخرى. فقد كانت ألمانيا، حتى اوائل القرن التاسع عشر تتألف من مجموعة من الإمارات والممالك، أكبرها بروسيا في الشمال، ولكنها لا تربطها ببعض رابطة سياسية، إلا أن تكون بقية الإمبراطورية الرومانية المقدسة رابطة، وحتى هذه قضى عليها نابليون. والذي يلفت النظر هو أنه مع تفرق ألمانيا وتنابذ امرائها وتنافر دولها لم تظهر فيها روح قومية محلية تكن هناك قومية بافارية وأخرى سكسونية وثالثة بروسية وهكذا

دواليك. بل بالعكس من ذلك فقد كانت الحركة المانية عارمة. والذي عليه الباحثون أن ثلاثة عوامل هي التي يرجع اليها ذلك أولها ان هذه الدول الصغرى كانت قد انتشرت فيها كلها، على توالي العصور، لغة واحدة ومعها ثقافتها وآدابها الاجتماعية والقانونية. فلما ظهرت الروح القومية كانت وسيلتها للوصول إلى الجماعات المختلفة جاهزة. وثانيها أنه لم تكن هناك فروق جغرافية واقتصادية قوية بحيث توجه هذه الوحدات الصغيرة توجيها متباينا. وثالثها هو أن هذه الوحدات السياسية، باستثناء بروسيا، كانت صغيرة فلم تستشعر انها قوية إلى حد انها تستطيع ان تقف منفردة. ويبدو لنا هذا الأمر واضحا إذا ذكرنا أن تيقظ الروح القومية في ألمانيا جاء مع حروب نابليون. فرأت الدول الالمانية عمليا إنه لا قبل لها بالوقوف أمام قوة مثل فرنسا وهي متنافرة.

والثورة الفرنسية هي التي حملت المفكرين الألمان على النظر في شؤون أنفسهم نظرا جديا فلم يكن من الطبيعي أن تعصف الثورة ومبادئها بفرنسا دون أن تتأثر ألمانيا بذلك. وجاءت حروب نابليون فأيقظت الألمان من سبات عميق. ورافق هاتين الحادثتين تقدم تجاري في ألمانيا حمل الطبقة المتوسطة على التفكير بأمر توحيد البلاد كلبا ليتسع نطاق عملها التجاري.

فنحن نرى إذن أنه في مطلع القرن التاسع عشر رأى الألمان أنفسهم بحاجة إلى دولة كبيرة تستطيع أن تقابل الدول الواقعة إلى الغرب منهم. فاتجهت ألمانيا نحو وعيها القومي تركزه ليصبح عقيدة الناس،

فقلـدت في ذلـك الـدول التـي سـبقتها وتأثـر المفكـرون الألمـان بالمفكريـن السياسـيين الإنكليـز والفرنسـيين وهـؤلاء كانـت آراؤهـم السياسـية الحديثـة تقـوم في الدرجـة الأولى عـلى أسـس قوميـة.

ويتحتـم علينـا أن نشـير هنـا إلى أن الحـركات الثقافيـة الألمانيـة في ذلـك الحـين تأثـرت بالنزعـة القوميـة فـكان مـن ذلـك أن انـصرف الكتـاب إلى دراسـة اللغـة والعنـاصر البشريـة والتاريـخ بقصـد الوصـول إلى منابـت الألمـان وتطورهـم في العصـور التاريخيـة حتـى ظهـور هـذه الجماعـات التـي تعيـش في ألمانيـا الكـبرى.

ولعلـه مـن الخـير لنـا وللبحـث الـذي بـين أيدينـا أن نشـير هنـا إشـارة مقتضبـة إلى اثنـين مـن مفكـري الألمـان في أوائـل القـرن التاسـع عـشر وعـرض آرائهـما مـن حيـث علاقتهـا بالفكـرة القوميـة عامـة وفي ألمانيـا خاصـة، وهـما فختـه وهيجـل.

أمـا فختـه فقـد كان يـرى أن الدولـة يجـب أن تتدخـل في شـؤون الأفـراد وتعـين السياسـة العامـة للجماعـة وخصوصـا في نواحـي الحيـاة الاقتصاديـة. وكانـت هـذه النظريـة تقـوم عـلى أسـاس أن ألمانيـا بـلاد زراعيـة فقـيرة يعوزهـا الاتحـاد السـياسي، فمـن الـضروري أن يكـون تدخـل الدولـة في شـؤون التأمـين الاقتصـادي عمليـا. ثـم عـاد فختـه فعالـج الدولـة وماهيتهـا في حيـاة الأمـة في موضـع آخـر فـرأى أن الدولـة هـي الخـير الأمثـل للأمـة. وقـد عـبر عـن هـذه المسـألة بقولـه «إن الدولـة القوميـة لا تتكـون مـن أيـة مـادة، بنـاء عـلى أسـس صناعيـة محكمـة، ولكـن مـن الـضروري أن تنمـي الأمـة وتنشـأ بحيـث تسـتطيع حمـل الدولـة القوميـة».

وأما هيجل فقد كان وقع تحت تأثير روسو في بعض نواحي تفكيره السياسي، فقبل منه رأيه القائل بأن الحرية الادبية قوامها الخضوع للإرادة العامة. لكنه عارضه في أنه اعتبر الشرائع التي تسير الأمة مقتضاها نتيجة لتاريخ الجماعة، وتقاليدها، وعاداتها، وأنظمتها. ولما كانت هذه كلها موجودة بحكم أنها ملازمة للأمة في أدوار حياتها فلم يكن ثمة حاجة لوجود هيئة تشريعية ذات سلطة عليا تسن هذه الشرائع على نحو ما ارتأى روسو. ومن هنا كانت نظريات هيجل السياسية خالية من التحدث عن مثل هذه الهيئة. فالدولة عنده هي ما ينتج من الاختبارات التي تجتازها الأمة في أدوار حياتها، فإذا فقدت بعض أنظمة الدولة مقدرتها على مجاراة الأمة في آمالها وأمانيها فقدت حقها بالبقاء وحق عليها أن يستعاض عنها بغيرها.

ومما لا ريب فيه أن الحرب التي كان نابليون قد شنها على الدول الالمانية، والانكسار الذي نالته هذه على يديه، قد أثر في هكل. فقد حز في نفسه أن يرى جماعته مهانة، فعمل على إحياء الروح القومية. ولعل هذا هو السبب في دفاع هكل عن الحروب. فانه كان يعتقد أنها مفيدة لأنها توقظ روح الامة وتعلمها الطاعة المطلقة للدولة وتنجها من الخصومات الداخلية التي تنتاشها إن لم يهددها عدو خارجي بخطر ماحق.

وقد يمكن أن نلخص ما جاء به هيجل، من حيث علاقته بالقومية، باننا عندما ندرس التاريخ فالذي يجب أن نتخذه وحدة لبحثنا هو الامة لا الافراد او المجموعات التي تتألف منها فعبقرية الأمة أو روحها

هـي التـي تخلـق الفـن والشريعـة والآداب والأخـلاق وحتـى الديـن. وقـد تعاقبـت عـلى هـذا العـالم ثقافـات قوميـة تكـون منهـا تاريـخ الحضـارة البشريـة. وجميـع البواعـث النفسـية التـي تتوفـر في شـعب فتحملـه عـلى الخلـق والإبـداع إنمـا تـؤتي ثمارهـا عندمـا تعـي الدولـة القوميـة وجودهـا وتبلـغ أشـدها. فالدولـة، عـلى هـذا، هـي المسـيرة للتطـور القومـي والغايـة التـي ينتهـي هـذا التطـور عندهـا، وتحتهـا ينطـوي كل مـا تجنـي منـه المدنيـة قـوة أدبيـة أو روحيـة.

وليـس عـلى الفـرد اذن الا ان يخضـع للدولـة القوميـة خضوعـا تامـا. فالدولـة القوميـة هـي الفضيلـة المثـلى.

فالوعـي القومـي في ألمانيـا كانـت تواتيـه أحـوال مناسـبة وكان يدعمـه طائفـة مـن كبـار المفكريـن أمثـال فختـه وهيجـل. فلـما جـاء وقـت العمـل كانـت الأفـكار مهيـأة لـه فتـم عـلى يـد بسـمارك.

والحـادث التاريخـي المعـروف بتوحيـد ألمانيـا شـغل السياسـة العمليـة حقبـة مـن الزمـن امتـدت مـن ١٨١٥ إلى ١٨٧١.

ويمكـن أن تقسـم هـذه الفـترة إلى دوريـن أولهـا يمتـد إلى سـنة ١٨٤٨. وثانيهـا يشـغل السـنوات التـي تلـت ذلـك.

والـدور الاول هـو الوقـت الـذي نفـذت فيـه آراء فختـه وهـكل وغيرهـا مـن دعـاة القوميـة الالمانيـة الكـبرى إلى طبقـات الشـعب المتعلمـة واعتنقهـا المشـتغلون بالتجـارة والمشرفـون عـلى شـؤون الصناعـة. لكـن الدعـوة القوميـة في هـذه الفـترة القصـيرة لم تكـن شـغل رجـال السياسـة، ذلـك أن كبـار المفكريـن لم يكونـوا يولـون السياسـة عنايتهـم، بـل كانـوا ينظـرون

اليها والى المشتغلين بها نظرة استهجان ان لم تكن نظرة احتقار. وكان من جراء ذلك أن الجماعة التي يصح تسميتها «بألمانيا الفتاة»، والتي كانت تعتبر نفسها قائدة لحركة المتقدمين، كانت تتألف وكانت تتألف من الشعراء والأدباء ولم يكن فيها من رجال السياسة العملية أحد. وكانت الجماعة إذا عرضت للسياسة فإنما يتأتى لها ذلك باعتبار أنها تنتقد الحياة الاجتماعية والعقلية فتتطرق من ذلك إلى الناحية السياسية. وكانت الجماعة حرة في آرائها، بينما رجال السياسة - كانوا من المحافظين. فكانت الحركة القومية كلما مرتبطة بحرية الفكر ومحاولة تحقيق الحرية السياسية. فقد كان يعتقد أن القومية الالمانية لا تتحقق إلا إذا انتشرت الحركة الديمقراطية معها بين أفراد الشعب. وفي هذه الناحية كانت الفكرة الالمانية تشبه في جوهرها ما آل إليه الأمر في إنكلترا، وتتفق مع الآراء الفرنسية وخاصة ما جاء به روسو.

على أن رجال المال والاعمال استطاعوا أن يقوموا، بالاشتراك مع رجال الحكم المحافظين، بعمل في سبيل تحقيق الوحدة السياسية. فقد نجحوا في إيجاد الاتحاد الجمركي الذي كان أولى الخطوات في سبيل سيطرة بروسيا على شؤون ألمانيا.

والمهم في هذا الاتحاد الجمركي انه أدى إلى تقوية الروح القومية. فان الطبقة المتوسطة، وهي الطبقة التي تعتمد عليها الحركات الفكرية والاجتماعية في نموها وسيرها نحو القوة، أفادت من الاتحاد الجمركي هذا فائدة كبرى فأصبحت بدورها تسعى إلى ما هو أكبر منه وأعم. هذا بالإضافة إلى أن الاتحاد نفسه حطم الشعور المحلي وقضى على

الفكـرة التـي قوامهـا اسـتقلال كل امـارة بشـؤونها وأصبـح الأسـاس الـذي يبنـى عليـه التشريـع في المسـتقبل. فصـار ينظـر اليـه عـلى انـه مثـل المصلحـة العامـة للشـعب الالمـاني كلـه. وهكـذا نجـد أن الاتحـاد الجمـركي نقـل العاطفـة القوميـة الالمانيـة مـن مجـال الأمـل والخيـال إلى حقـل الحيـاة العمليـة إلى الواقـع.

عـلى أن الحـوادث التـي مـرت بأوروبـا سـنة ١٨٤٨، والثـورات التـي فشـلت في تلـك السـنة، كان أثرهـا قويـا جـدا في تغيـير وجهـة نظـر الألمـان. فـإن زعامـة الأحـرار، القائلـين بوجـوب تحقيـق الوحـدة القوميـة عـلى أسـس الديمقراطيـة السياسـية أخـذت تضعـف. وتقـدم المحافظـون، وهـم الذيـن كانـوا أصحـاب الحـل والعقـد في البـلاد عامـة وفي بروسـيا خاصـة، فتزعمـوا حركـة الوحـدة القوميـة وأصبحـت القوميـة والمحافظـة تسـيران معـا في ألمانيـا وبعـدت الآراء في السياسـة العمليـة فيهـا عـن وجهـة النظـر الإنكليزيـة والفرنسـية، إذا ظلـت القوميـة هنـا ديمقراطيـة السياسـة.

وهنـا جـاء دور بسـمارك فقـد كان زعيـم المحافظـين وصاحـب النفـوذ الفعـلي في بروسـيا وكان يـرى النواحـي التـي تعيـق السـير نحـو التوحيـد السـياسي في الداخـل وفي الخـارج. أمـا في الداخـل فقـد جـاءت مـن هـذه الخصومـة التـي أشرنـا إليهـا قبـلا. وأمـا في الخـارج فقـد كان مصدرهـا فينـا وإمبراطوريـة آل هابسـبرج. وعمـل بسـمرك عـلى القضـاء عـلى الاثنـين. أمـا في الداخـل فقـد أعانـه التقـدم الاقتصـادي الـذي لمـس النـاس إثـر الاتحـاد الجمـركي فيـه. وسـاعده أيضـا دعـوة لسـت القائلـة بوجـوب تدخـل الدولـة

لحماية الزراعة والصناعة والتجارة وتيسير السبل لتقدم هذه الموارد كلها.

وأما في الخارج فقد لجأ بسمرك إلى ما سماه سياسة الدم والحديد، فشن حروبا انتهت بإعلان اتحاد الإمبراطورية الألمانية في سنة ١٨٧١.

إيطاليا

استقبلت إيطاليا القرن التاسع عشر وهي مفككة العرى مقطعة الأوصال، فالجزء الشمالي منها واقع تحت حكم النمسا، والجزء الجنوبي تحكمه اسرة غريبة عن البلاد والجزء المتوسط تابع لسلطان البابا الزمني. وبين هذه وتلك دوقية او امارة مستقلة. وكلها ترغب في دوام الحال على ما هو عليه. ويستثنى جزء واحد من إيطاليا هو مملكة سردينيا وبيمونت. فقد كانت هاتان المنطقتان يحكمها آل بيمونت وكان ملكها، شارل ألبرت، إيطاليا قبل كل شيء.

هذه صفة الحالة السِّياسيَّة. ولم تكن الحالة الاقتصاديّة خيرا من ذلك، فإيطاليا فقيرة تعتمد على الزّراعة، والفلاحون غارقون في بحر من الجهالة، ولم تكن الحركة الصِّناعيّة الجديدة، التي قد أخذ بها شمال غربي أوروبا، قد انتظمت إيطاليا بعد. فلم يكن ثمّة الطبقة المتوسطة، التي قوامها رجال المال والأعمال، والتي تنظر إلى الأمور نظرة صائبة وترى العلاقة بين المصلحة والقومية فتربطهما ببعضهما البعض بدل أن تباعد بينهما، وقد قوى هذا الضعف الاقتصادي التَّنافر والتَّباعد والتَّنابذ وشجّع الروح المحليّة.

على أنّه كان للإيطاليِّين تاريخ قديم. وهذا التَّاريخ القديم ترك لهم إرثا استطاع مفكّروهم وكتّابهم أن يذكروهم به.

كان ذلك الإرث قوامه ثلاثة أشياء: أوّلها الوحدة التَّاريخيَّة التي استمتعت بها إيطاليا سبعة قرون أو تزيد، فاعتادت على الاتّجاه بنظرها نحو مصدر واحد لشرائعها وثقافتها ونظمها وحضارتها، وثانيها لغة واحدة أو تقرب من ذلك، هي لغة لاتينية تطورت مع القرون حتى آلت إلى اللغة الإيطالية التي كان يفهمها جميع سكان البلاد. أما العنصر الثالث من تلك الأشياء فهو شعور غامض بأن هذه الجماعات المتباينة وأولئك الأفراد المنتشرين في البلاد من شمالها إلى جنوبها انما تتكون رجا منهم جميعا «أمة». لكن هذا الشعور بالأمة كان كامنا غامضا مبهما، فمتى أتيح له من يثيره ويوقظه اتضح وكان عارما قويا قد يقضي على كل شيء في طريقه.

في النصف الأول من القرن التاسع عشر سرت العدوى إلى إيطاليا مثل سريانها إلى المانيا وغيرهما. واتجهت الحركة النار القومية فيها نحو غايتين، الوحدة والاستقلال. ومع أن المشتغلين في الحقل القومي اتفقوا في الأهداف فقد اختلفوا في التارك الوسائل الواجب اتباعها. وممكن على العموم ملاحظة تيارين رئيسيين: فقد كان ثمة المعتدلون الذين دعوا إلى التحالف مع الولايات التي كانت في إيطاليا على أن تحتفظ حكوماتها بكيانها الشخصي بقدر لا يحول دون التحالف. فهم لم يهتموا بالناحية الديمقراطية في برنامجهم، فلم يفكروا بأن يرافق عملية التوحيد إشراك الشعب الإيطالي في تقرير مصيره السياسي وتعيين

نـوع حكومتـه بنفسـه. ولعلهـم كانـوا يـرون أن اتحـادا شـبيها بالاتحـاد الجمـركي الألمـاني، مـع تقويتـه سياسـيا، كان كافيـا لحـل المشـكلة - الحاليـة. وقـد كان بعضهـم يـرى أن مملكـة بيمونـت (سردينيـا) يجـب ان تتقـدم إلى الميـدان فتخـرج المسـاويين مـن البـلاد وتؤلـف مـن الوحـدات المحليـة الاتحـاد المنتظـر وتتزعمـه. لكـن شـاول ألـبرت كان يـرى أنـه لا قبـل لـه بمجابهـة النمسـا ومملكتـه عـلى حالهـا مـن الضعـف.

وكانـت ثمـة جماعـة اخـرى هـي التـي تمثـل الاتجـاه الآخـر، وتتلخـص آراؤهـا في إيجـاد وحـدة سياسـية تامـة لا يفصـل أجزاءهـا عـن بعضهـا البعـض شيء وان يكـون شـكل الحكـم في الدولـة الجديـدة جمهوريـا وأن يقـوم عـلى أسـاس ديمقراطـي، فيشـترك فيـه الشـعب في تقريـر شـؤونه ومصـيره. وكان يتزعـم هـذه الحركـة مزينـي (١٨٠٥ – ١٨٧٢) وكانـت إيطاليـا الفتـاة، الجمعيـة السريـة التـي أنشـأها سـنة ١٨٣١، سـبيله لتنظيـم حركتـه وثورتـه ونـشر مبادئـه بـين الايطاليـين، وقـد نفـي مزينـي فقـضى شـطرا مـن حياتـه في سـويسرا وفرنسـا ثـم اسـتقر في انكلـترا (١٨٣٧ - ١٨٧٢). وكان غريبالـدي مـن المؤمنـين بوجهـة نظـر مزينـي؛ فقـد كان يرمـي إلى إنشـاء جمهوريـة تضـم إيطاليـا كلهـا.

وفي السـنة ١٨٤٨، سـنة الثـورات في أوروبـا، اندلعـت السـنة الثـورة في شـمال ايطاليـا. وعندهـا رأى غريبالـدي ومزينـي أن الفرصـة سـانحة، فهاجـما رومـا واحتلاهـا وأخرجـا البابـا وأقامـا هنـاك جمهوريـة صمـدت أمـام القـوى النمسـاوية والفرنسـية والصقليـة حينـا ثـم تغلـب الفرنسـيون عليهـا

وأعـادوا البابـا. وقـد جـاء مزينـي في تلـك السـنة إلى رومـا ليـشرف عـلى الأمـور ويشـترك فيهـا .

فلـما فشـلت المحاولـة الاولى عـاد إلى لنـدن، ولكنـه لم يمـل، وكذلـك غريبالـدي لم ييـأس. وعـاد الاثنـان إلى الدعايـة والاسـتعداد: مزينـي بمـا أوتي مـن مقـدرة عـلى الكتابـة المثاليـة وغريبالـدي بنشـاطه الفـذ في ميـدان التنظيـم للثـورة والتهيئـة لهـا.

ومـن الحـق أن نضيـف هنـا كافـور، وزيـر مملكـة بيمونـت الـذي اهتـم بأمـر الوحـدة ليصبـح ملكهـا ملـكا لإيطاليـا الجديـدة فاخـذ يشـجع نشـاط الاثنـين الآخريـن ويفيـد مـن أعمالهـما وخططهـما.

وجـاءت الفرصـة المؤاتيـة سـنة ١٨٥٩ فاقتحـم غريبالـدي الميـدان بجرأتـه وحزمـه وحماسـته ومعـه ألـف متطـوع غـير مدربـين وانتـصر في الخطـوات الاولى فتزايـد اتباعـه واغتـم كافـور الفرصـة فتقـدم بقواتـه المنظمـة. وفي سـنة ١٨٦١ أعلـن فكتـور عمانوئيـل ملـكا عـلى ايطاليـا. وبعـد عـشر سـنوات ضمـت البندقيـة أمـلاك البابـا. وبذلـك تمـت الوحـدة الايطاليـة السياسـية. وقـد اشـار جـورج مريديـث الشـاعر الانكليـزي في قصيـدة نظمهـا بعـد هـذه الحـوادث بسـنوات، إلى نهضـة ايطاليـا بعـد كبوتهـا فقـال إننـا نفكـر بأولئـك الذيـن نفـذوا الحيـاة في هيكلهـا المتداعـي - كافـور ومزينـي وغريبالـدي، دمـاغ ايطاليـا وروحهـا وسـيفها، وحرروهـا مـن خصوماتهـا القاتلـة تحدوهـم غايـة نبيلـة.

أمـا وقـد عرضنـا إلى الحركـة نفسـها وأشرنـا إلى الحـوادث، فإننـا نريـد أن نقـف عنـد أمريـن وقفـة قصـيرة. الأمـر الأول هـو أهميـة سـنة ١٨٤٨ في توجيـه الفكـر القومـي الإيطـالي والأمـر الثـاني هـو مزينـي نفسـه.

أمـا سـنة ١٨٤٨ - ١٨٤٩ فقـد اظهـرت أن المعتدلـين، دعـاة الاتحـاد، كانـوا مخطئـين في برنامجهـم السـياسي. لأن القـوى المتنافـرة في ايطاليـا لا تريـد أن تتخـلى عـن سـلطانها المحـلي في سـبيل المصلحـة العامـة. وظهـر مـن محاولـة اقامـة الجمهوريـة في رومـة ان هـذه الفكـرة ايضـا ليسـت مـما يقبلـه أصحـاب السـلطان ولا مـما يتفـق مـع الدرجـة السياسـية التـي كانـت عليهـا عامـة الشـعب الإيطـالي وكان مـن نتيجـة حـوادث تلـك السـنة أن اتضـح أن ملـك بيمونـت لا يسـتطيع أن يقـاوم النمسـا وحـده، وأنـه مـن الـضروري ان تنتـشر بـين الشـعب روح تؤيـد الفكـرة العامـة. هـذه هـي النواحـي السـلبية التـي أظهرتهـا تلـك السـنة. أمـا الناحيـة الايجابيـة فتظهـر واضحـة في الطريقـة التـي اتبعهـا جميـع المشـتغلين بالقضيـة السياسـية في إيطاليـا وهـي أنـه كان مـن الـضروري أن تـزول كل الحواجـز بـين الجماعـات والافـراد وان يـذوب كل الايطاليـين فيكـون منهـم أمـة واحـدة تحـت إشراف دولـة واحـدة.

أمـا مزينـي فيجـب ان ينظـر اليـه عـلى أنـه العقـل المفكـر والـروح الوثـاب في حركـة الوحـدة الايطاليـة، وعـلى أنـه، فـوق ذلـك، الرجـل الـذي جعـل للقوميـة والوطنيـة مكانـة عليـا في حـركات القـرن التاسـع عـشر الفكريـة في أوروبـا، بحيـث كان أثـره في هـذه الناحيـة لا يتطـاول إليـه أثـر مفكـر آخـر.

ومـما لا ريـب فيـه أن كتاباتـه مسـؤولة عـن كثـير مـن الحـركات القوميـة الحديثـة.

كان مزينـي يعتقـد أن الغايـة التـي يجـب أن يبـذل كل فـرد جهـده في سـبيلها هـي تقـدم البشريـة. ولكـن الفـرد لا يسـتطيع أن يقـوم بواجبـه نحـو البشريـة إذا كان منفـردا، أمـا متـى اجتمـع الأفـراد تمكنـوا مـن إتمـام العمـل. والجماعـات إمـا أن تكـون عائلـة وإمـا أن تكـون أمـة وإمـا أن تكون البشريـة جمعـاء. أمـا العائلـة فوحـدة صغـيرة لا يمكنهـا ان تعمـل شـيئا في سـبيل سـعادة الانسـانية والبشريـة جمعـاء وحـدة كبـيرة جـدا لا يتيـسر لهـا ان تقـوم بالعمـل مشـتركة. فلـم يبـق إلا الوحـدة «الأمـة». فمتـى كانـت ثمـة امـم توزعـت العمـل وإجادتـه وكانـت نتيجتـه خـيرا عليهـا كلهـا، وإذن فمـن مصلحـة العـالم أن تكـون ثمـة «أمـم» تسـعى لخـيره، ومـن واجـب كل فـرد أن يكـون جـزءا مـن امـة. وعندهـا تتـاح لـه الفرصـة لمعرفـة الأسـس التـي يحكـم بموجبهـا عـلى نفسـه وعـلى أعمالـه التـي يتكـون منهـا ومـن أعـمال بقيـة الأفـراد جـماع مـا يتوجـب عـلى الأمـة القيـام بـه.

ومـن هنـا نـرى أن مزينـي كان يعتقـد أن الامـة الايطاليـة يجـب ان تـم لهـا لهـا وحدتهـا القوميـة والسياسـية لتخـدم المدينـة العالميـة لا لتعتـدي عـلى غيرهـا. وهـذا يحملنـا عـلى الاشـارة إلى ناحيـة اخـرى مـن تفكـير مزينـي وهـي أن كافـة الشـعوب لهـا الحـق في الحريـة والسـيادة مـا دامـت فيهـا حيويـة الامـة ونشـاطها.

اعتقد مزيني أن حرية ايطاليا وتأسيس دولتها تكون قصة ومهددة بالخطر الا اذا اصبحت ايطاليا شريكة في اخوة كبيرة قوامها الأمم الحرة. ولذلك تحولت «إيطاليا الفتاة» التي أنشأها سنة ١٨٣١ إلى جمعية اكبر كثيرا اسمها « اوروبا لفتاة » وأصبحت جمعيته الأصلية «وألمانيا الفتاة» «وبولونيا الفتاة» وهنغاريا الفتاة فروعا لها. وعن طريق هذه المؤسسات انتشرت آراء مزيني القومية وأصبحت دعوة إلى كل شعب لتنظيم شؤونه على أساس القومية والسعادة. لذلك يجب ان يكون تقرير المصير القومي الخطوة الأولى في سبيل التحرر وأول درجاته. وإلى مزيني يرجع الفضل الأكبر في أن الحركة الايطالية القومية كانت أنقى حركة وأنبل تعبير للفكرة القومية سجلها التاريخ الأوروبي، وبهذا تتميز عن حركة الوحدة الألمانية.

ونحن، بعد ان عرضنا رأي مزيني هذا العرض المقتضب، نقف عند الرجل ثانية لنرى الدور الذي لعبه في سبيل إيطاليا نفسها. أما من الجهة الواحدة فقد طبع الحركة كلها بهذا الطابع العالي الذي اشرنا اليه. وأما من الجهة الأخرى فقد كان لمزيني مقدرة كبيرة على تنظيم الدعاية بين الشعب الإيطالي وفي الخارج لمصلحة إيطاليا. ففي الحقل الاول ظهرت مقدرته في «إيطاليا الفتاة»، إذ كانت سبيله لنشر المبادئ القومية بين قومه. فكان اتباعه يرحلون إلى كل جزء من ايطاليا غير مبالين بما يلقون من نصب وتعب وما يعترضهم من مشقات وأخطار. فقد كان عليهم أن يتجولوا بين الرعاة في مراعيهم و بين الزراع في حقولهم وبين الصناع والتجار في حوانيتهم: ويقصوا عليهم اخبار المجد الأثيل المنسي الذي عرفته بلادهم، و يهيبوا بهم أن يبذلوا نفوسهم

لإحيائـه وإعادتـه. واما في الحقـل الخارجـي فقـد تمكـن مـن اثـارة عطـف الشـعوب القويـة عـلى الحركـة الايطاليـة فهيـأ الأفـكار لمـا حـدث فيـما بعـد.

الفكـرة القوميَّة في تركيا الحديثة

•••

بلغـت الإمبراطوريـة العثمانيـة في القـرن السـادس عـشر أقـصى اتسـاع لهـا. ففـي سـنة ١٥١٧ ضمـت إليهـا سـوريا ومـصر. وبعـد ذلـك بقليـل فتحـت العـراق وفي سـنة ١٥٢٩ أحاطـت خيـول العثمانيـين بمدينـة فينـا محـاصرة لهـا. واعتـبرت الـدول الأوروبيـة توسـع العثمانيـين في أوروبـا نفسـها خطـرا عليهـا فاتحـدت ضدهـم وتمكنـت مـن ارجاعهـم تدريجـا في أواخـر القـرن نفسـه

واسـتمرت مقاومـة الأوروبيـين للعثمانيـين شـديدة عنيفـة حتـى اقصوهـم عـن اواسـط أوروبـا. واشـتركت روسـيا في الخصومـة ضـد العثمانيـين في القـرن الثامـن عـشر وشـنت عـلى الدولـة العليـة حروبـا متعـددة في ذلـك القـرن والقـرن الـذي تـلاه. لكـن أوروبـا مـا عتمـت أن نقلـت حروبهـا ضـد الدولـة العثمانيـة إلى مـصر عـلى يـد نابليـون ثـم عـلى أيـدي الانكليـز الذيـن احتلوهـا سـنة ١٨٨٢.

ولسـنا نقصـد في هـذه العجالـة أن نـدرس تاريـخ الامبراطوريـة العثمانيـة لكننـا يجـب ان نذكـر انـه في القـرن التاسـع عـشر كانـت دول أوروبـا القويـة وهـي إنجلـترا وفرنسـا والنمسـا وروسـيا قـد تغلغـل نفوذهـا في شـؤون الدولـة العثمانيـة السياسـية والاقتصاديـة والقوميـة. فتقدمـت بعضهـا مدعيـة حمايـة الاقليـات الدينيـة في أمـلاك الدولـة. وحـاول البعـض الآخـر أن يحصـل عـلى امتيـازات ماليـة ومدنيـة. وفرضـت دول اخـرى حمايتهـا عـلى الاجـزاء المترامية مـن أراضيهـا وشـجعت هـذه الـدول الثـورات التـي

أخـذت تظهـر في أنحـاء مختلفـة مـن الإمبراطوريـة العثمانيـة. وكان لهـا كلهـا امتيـازات قنصليـة وبريديـة وتجاريـة يتمتـع بهـا رعاياهـا المقيمـون في الدولـة العثمانيـة.

وقـد اخـذت المفكريـن العثمانيـين يقظـة قويـة في الوقـت نفسـه كانـت ترمـي إلى إصـلاح الدولـة وتخليصهـا مـن النفـوذ الأجنبـي. واشـترك في ذلـك مـن الكتـاب شـناصي أفنـدي ونامـق كـمال وضيـا باشـا، ومـن رجـال الإصـلاح السـياسي مدحـت باشـا، ومـن السـلاطين عبـد العزيـز وعبـد الحميـد. وكان مـن جـراء هـذه المحـاولات أن قامـت الثـورة الدسـتورية في سـنة ١٩٠٨.

ثـم جـاءت الحـرب الكـبرى الماضيـة واشـتركت فيهـا تركيـا إلى جانـب دول الوسـط وخرجـت منهـا مكسـورة وانتزعـت منهـا كل أملاكهـا. وهـم الحلفـاء باقتطـاع منطقـة ازمـير ومنحهـا لليونـان لـولا قيـام مصطفـى كـمال الـذي اسـتردها فظلـت جـزءا مـن تركيـا الحديثـة.

كانـت محـاولات القـرن التاسـع عـشر تتجـه في ثـلاث طـرق مختلفـة. فواحـدة كان أساسـها الجامعـة العثمانيـة والثانيـة كانـت تعتمـد عـلى الجامعـة الاسـلامية والثالثـة كان قوامهـا الجامعـة الطورانيـة. لكـن الحـرب الكـبرى الماضيـة قضـت عـلى الاولى ومصطفـى كـمال عـزل الثانيـة فلـم يبـق الا الثالثـة. وهـذه النزعـة نفسـها تحولـت إلى نزعـة تركيـة بـدل أن تكـون طورانيـة.

وتركيـا الحديثـة تسـيطر عليهـا في جميـع نواحـي حياتهـا القوميـة التركيـة المحضـة. وترتكـز هـذه القوميـة عـلى اللغـة والأدب ودرس التاريـخ وإحيـاء الأعيـاد وإشراك الأتـراك، أفـرادا وجماعـات، في سياسـة البلـد. ونحـن عندمـا

نذكر اللغة والأدب يجدر بنا أن نشير إلى الدور الذي قام به الكتاب الثلاثة: شناصي افندي و نامق كمال وضيا باشا في إحياء اللغة التركية الحديثة، ونشرها بين المتعلمين، عن طريق ترجمة عيون الأدب الأوروبي وإنشاء الجرائد اليومية وتأليف القصص والكتب التي تتناول حياة الأتراك وتاريخهم بالدرس والتحليل. وعلى أيديهم اتخذت بعض الكلمات القديمة معاني جديدة. فبعد أن كانت كلمة وطن يفهم منها البيت أو مكان الميلاد صارت تدل على البلاد. و بعد أن كانت كلمة «ملت» تعني جماعة دينية صارت تشير إلى «الشعب».

وفي أوائل القرن الحالي نجد جماعة من شباب الترك يعلنون في جريدة «الأقلام الفتية» أن لغة جديدة وأدبا جديدا ومدنية جديدة تستمد أصولها من الروح التركية وحدها قد ظهرت. وخير من يمثل النزعة التركية الحديثة في الأدب واللغة اثنان: خالدة أديب وضيا ألب بك. أما الأولى فقد حضرت اجتماعا طورانيا وسمعت ما التي فيه من الخطب وكتبت عقيب ذلك تقول «بينما كنت أصغي لتلك الخطب شعرت أن روحي تحركت من أعماق نفسي وأدركت إلى أي حد تتأصل أماني تركيا الحديثة في وجود أجدادنا. فقد وصلت إلى نغمات موسيقية منبعثة من دمنا الطوراني وحملتني معها حتى أني إلى هذه الساعة أشعر كأنني أسمعها. وقد وثقت عندها أنه يتوجب علينا أن ننحدر إلى ينابيع الحياة لنحصل على الروح التي يجب أن نبثها في شعبنا لنتمكن من الوصول به إلى الأهداف السياسية التي نرمي إليها» وأما الثاني فقد قال في أشعاره «إن الشعور الذي يجري في دمي هو صدى ماضي، وإن أعمال إسلامي المجيدة أتحسس آثارها في الدم الذي يجري

في عروقي وفي قلبي بعد أن كنت اقرأها في صفحات جافة مغبرة صفراء من كتب التاريخ. إن أتيلا وجنكيزخان، وها معجزة جنسي ومظهر عظمته، ليسا دون الإسكندر وقيصر. وأغزخان لا يزال حيا في قلبي وفي دمي بكل عظمته وبهائه، وهو الذي ينشر السرور في قلبي ويحدوني إلى أن أصرخ بحماس قائلا: ليست بلاد الأتراك تركيا أو تركستان فحسب ولكنها طوران الخالدة». وقال في مناسبة اخرى «ليست طوران مسرحا خياليا. فإن القبائل التركية المنتشرة في آسيا ستلتف حول العلم التركي وتنشئ إمبراطورية عظيمة. والأتراك يجب أن يتحدوا ويخلقوا حياة خالدة هي جماع ما في حياة افرادهم من قوة».

وهكذا عمد الأتراك إلى تاريخهم القومي يستلهمونه نشاطا وروحا وعمل كتابهم على إنعاشه فأحيوا عاداتهم وأغانيهم القبلية والروح الحربية التي كانت هذه القبائل تحياها من قبل ورأوا أن الخير في أن يقووا ذلك بتعليمه للأطفال. واهتموا بأعيادهم الوطنية فسار قرابة ألف منهم إلى قبر محمد الثاني فاتح القسطنطينية ليستمدوا من ذكراه قوة تساعدهم في الجهاد الذي رأوا أنفسهم مقبلين عليه وأخذوا يسمون أولادهم بأسماء تركية بحتة.

وأرادوا أن يشمل هذا التغيير نواحي الحياة المختلفة في المدارس والكليات وفي المتاجر والمزارع والبيت فشمل ذلك الرجل والمرأة والغني والفقير والكبير والصغير على حد سواء.

ولعله كان بعض الخلاف لا يزال قائما في التفاصيل أو في الأسس التي يجب أن تسير عليها تركيا الحديثة، لكن النزاع بين الأتراك واليونان

وانتصار مصطفى كمال وقيامه على رأس الحكومة التركية الجديدة أزال كل خلاف مهما كان نوعه وصارت تركيا دولة قومية بكل ما في الكلمة من معنى. ففي بدء النزاع أعلن أن كل الأرض التركية التي تقطنها غالبية من الأتراك وحدة لا تتجزأ وأن الشعب التركي مستعد لمقاومة أي احتلال في أي جزء من بلاده. والسيادة الدولية حق قطعي للامة ولهذه الامة الحق المطلق بأن تدبر امورها وتدير شؤونها وتقرر مصيرها بنفسها. والمجلس الوطني الكبير هو الممثل الوحيد لإرادتها ولا ترضى بغيره مشرفا على شؤونها وتستمد تركيا مثلها من شخصيتها القومية وتقبل على المدنية الغربية لتختار منها ما تراه مناسبا لها.

أما الدور الذي قام به مصطفى كمال في خلق تركيا الحديثة فلا مجال لتفصيله هنا لكننا نوجز فنقول بأنه إليه يرجع الفضل في تتريك الحياة الاقتصادية والسياسية والفكرية لأنه بالاشتراك مع مساعديه ومعاضديه ومؤازريه استطاع أن يوجه كل فرد في تركيا نحو الحياة القومية الجديدة. فشعر كل تركي أنه إنما خلق ليرضع قوميته في البيت ويتعلم دروسها في المدرسة ويعمل من أجلها ويموت في سبيلها. وعندئذ يكون له الحق في أن يعتبر نفسه أنه قد قام بواجبه وعاش ومات محترما بين جماعته وقومه وأن بلاده كانت محترمة عزيزة المكانة بين الأمم الأخرى.

مقوِّمات الأمَّة

•••

إذا كان القـرن التاسـع عـشر عـصر الحـركات القوميـة، فقـد كان بطبيعـة الحـال، عـصر فلسـفة القوميـة. والـذي نقصـده مـن هـذه العبـارة أنـه كان العـصر الـذي حـاول فيـه الكتـاب والمفكـرون أن يفـسروا معنـى «الأمـة» مـن جهـة ويدرسـوا العوامـل التـي تعمـل عـلى تكوينهـا. وقـد ورث القـرن العـشرون هـذه الفكـرة وتناولهـا بالـدرس. وهـا نحـن أولاء نعـرض الآن لهـذه الناحيـة مـن بحثنـا. ويجـدر بنـا أن نلاحـظ بـادئ ذي بـدء أن انقسـام المفكريـن والكتـاب في الموضـوع إنمـا يرجـع الفلسـفة العامـة والاختبـارات التـي مـرت بهـا بلادهـم أيـام جهادهـا في سـبيل تحقيـق أمانيهـا القوميـة. والعوامـل المختلفـة التـي اعتـبرت مؤثـرات رئيسـية في وجـود «الأمـة» وكيانهـا هـي: الوحـدة الجغرافيـة والتاريـخ واللغـة. والعوامـل الاقتصاديـة والدولـة والوحـدة العنصريـة، والديـن، والتاريـخ، واللُّغـة.

والأمـة، عندمـا نحـاول أن نوضـح ماهيتهـا، تظهـر أنهـا صعبـة التحديـد. فيـما لا ريـب فيـه مثـلا انـه مـن الـضروري أن يكـون بـين الأفـراد الذيـن تتكـون منهـم الامـة شـعور عـام مشـترك يمكنهـم مـن العيـش معـا في صقـع واحـد. ولكـن مـا هـو هـذا الشـعور المشـترك، ومـم يسـتمد وجـوده وقوتـه.

فقـد اعتـبرت الوحـدة الجغرافيـة في وقـت مـا أحـد العوامـل التـي تكـون الأمـة. والمقصـود بالوحـدة الجغرافيـة هـو أن تكـون البـلاد التـي يسـكنها الشـعب واضحـة الحـدود بينـة الرقعـة متحـدة في صفاتهـا الجغرافيـة مـن حيـث بسـطحها ومناخهـا. فتكـون هـذه الصفـات المشـتركة، والحـب الـذي

يحس به سكان البلاد نحوها رابطا يربط الأفراد بالبلاد ومن ثم بعضهم ببعض. ومع أننا نجد أن كثيرا من الام التي تكاملت شخصيتها القومية تقعان بلادا لها وحدة جغرافية، ومع الاعتقاد بأن هذه الوحدة كانت عاملا مساعدا في ايجاد الامة، فان هذا العامل وحده لا يستطيع أن يفكك امة فيجعل منها شعوبا ولا يمكنه أن يخلق من شعب متفرق امة. فاليونان المحدثون يقطنون بلادا مختلفة السطح في أجزائها متباينة الملامح الطبيعية ومع ذلك فقد احتفظوا بالشعور بوحدتهم القومية. وهذه بولونيا، وهي في مقدمة الشعوب العالمية تمسكا بوحدتها تسكن بلادا لا حدود واضحة لها ولا يفصلها عن جارتها الشرقية، روسيا، أو عن جارتها الغربية، المانيا، شيء. فالأقطار الثلاثة متصلة ببعضها لأنها أجزاء من السهل الأوروبي العظيم. ومن الناحية الاخرى فهذا سهل هنغاريا الذي يكون وحدة جغرافية لم يؤد إلى خلق أمة هنغارية من الشعوب المتباينة الساكنة فيه.

أما وحدة المصالح الاقتصادية وتشابه الأعمال في جماعة واحدة فقد اعتبرها البعض عاملا رئيسيا لتكوين الأمة. ولعل هذا من آثار المدرسة التي تفسر التاريخ تفسيرا اقتصاديا. فقد قيل إن هذه المشاركة تعين على توحيد وجهات النظر بين الأفراد ومن ثم تؤدي إلى توحيد شعورهم. وقد يصح هذا في الحالات. فلعله كان عاملا مؤثرا في الدنمارك. لكننا إذا حاولنا تطبيقه على بلاد اخرى وجدناه لا يغني فتيلا. فأي اشتراك نستطيع أن نلمسه، من الناحية الاقتصادية البحتة، في حياة سكان جنوبي فرنسا وسكان شمالها الشرقي: فأهل الجنوب يغرسون الكرم وأهل الشمال يعملون في المناجم والمصانع والذي يمكن

أن يقال بهذه المناسبة، هو أن أهل ليل في فرنسا مثلا، أقرب إلى سكان حوض الرور الألماني في تفكيرهم الصناعي الاقتصادي. ومثل هذا يمكن أن يقال عن أهل برمنغهام وأهل ديفون في إنكلترا. ومثل هذا كثير.

وحتى لو توسعنا في معنى العامل الاقتصادي بحيث اعتبرنا المقصود منه النظام الاقتصادي (المالي) الذي تسير عليه الدولة فإننا لا نجد فيه شفاء لغليلنا. فإنه من العبث أن توجد شعورا «بالأمة» بسبب ان السياسة المالية للدولة تتجه اتجاها معينا، بل قد يؤدي اتباع مثل هذا الأمر إلى التفرقة. فهل يمكن إيجاد شعور قومي إنكليزي بين سكان كنت، في الجنوب الشرقي من البلاد، على اساس ان سياسة الحكومة الانكليزية الاقتصادية ترمي إلى العناية بتجارة الصوف الخاصة بيوركشير أو صناعة الأقطان المتمركزة في لانكشير؟ الواقع أن السياسة المالية ووحدة المصالح الاقتصادية تساعد على تنمية الشعور وتقويته إذا كان موجودا.

وما دمنا بسبيل التحدث عن هذه المسألة فإننا يجب أن نذكر القارئ بأن التقدم الاقتصادي في ألمانيا كان عاملا مهما في سبيل التوحيد السياسي، لأن الطبقة المتوسطة ازداد عددها، وتعددت مصالحها ورأت فائدة من هذه الوحدة فشجعتها وهذا أمر آخر. فنحن الساعة بسبيل التحدث. عن العامل الاقتصادي ووحدة الشعور القومي لا عن أثره في التوحيد السياسي. ومما اعتبر أنه عامل هام في ايجاد الامة هو وجود دولة تحكم ذلك الشعب لمدة طويلة. وقد رأينا أثر هذا في نشوء انكلترا وفرنسا فلا حاجة بنا إلى تكراره هنا. فخضوع شعب لدولة

واحـدة يـؤدي إلى توحيـد أنظمتـه وقوانينـه وإدارتـه وقـد يتعـدى ذلـك إلى ادبـه ومدارسـه ومـن ثـم يتـاح للامـة ان تصهـر في بوتقـة الحيـاة فتـزداد ترابطـا ومتانـة. عـلى أن هـذا الصهـر لا يتـم إلا إذا توفـرت العنـاصر التـي تقـوم الحكومـة بتوحيدهـا. وهـذا مـا حـدث في إنكلـترا وفرنسـا واسـبانيا في عصورهـا المختلفـة.

وثمـة نظريـة لقيـت في السـنوات الاخـيرة خاصـة تأييـداً كبـيرا في بعـض البلـدان الأوروبيـة - هـي نظريـة «العنـصر الواحـد» أو «العنصريـة النقيـة». والمتحدثـون عـن هـذه الناحيـة، مثـل الذيـن يمارسـونها دون تحـدث عنهـا، يـرون أن ثمـة عنـاصر خاصـة في العـالم قـادرة عـلى خلـق المدنيـة والاحتفـاظ بهـا. ومـن الطبيعـي أن يكـون دعـاة مثـل هـذه النظريـة يـرون أن العنـصر الـذي ينتمـون إليـه، بـل ذلـك الفـرع نفسـه مـن الجنـس الـذي يمتـون إليـه بصلـة، هـو خـير الأجنـاس وسـيدها وصاحـب الفضـل الأوحـد عـلى العـالم وفيـه جـماع الفضائـل.

ولكـن السـؤال الـذي يخطـر ببالنـا حـالا هـو هـذا - هـل ثمـة أمـة مـن الأمـم الحديثـة في اوروبـا او في غيرهـا تسـتطيع ان تقـول عـن نفسـها أنهـا - مـن الناحيـة العنصريـة - متحـدرة مـن أصـل واحـد أو أنهـا ليسـت سـوى نتيجـة امتـزاج بـين عنـاصر عديـدة.

لنلـق نظـرة عامـة عـلى بعـض الأمـم الأوروبيـة ولنختـر أمثلتنـا مـن الـدول التـي تقـوى فيهـا النزعـة العنصريـة. فهـذه ألمانيـا مثـلا. مـا هـو تاريـخ الأمـة الألمانيـة الإثنولوجـي؟ أمـا في فجـر التاريـخ فقـد كانـت تسـكن ألمانيـا المجموعـات التاليـة (١) الكرومانيـون (٢) فلاحـو الدانيـوب الذيـن رحلـوا

إليها (٣) جماعات جاءتها من السهوب الشرقية (٤) مهاجرون رحلوا اليها من جنوب روسيا واستقروا في سهولها (ألمانيا) الشمالية. وفي الازمنة التاريخية جاءت إلى ألمانيا (٥) جماعة من اسكندنافيا منها القوط واللمبارديون وغيرهم (٦) وحول القرن التاسع الميلادي هبطها الصقالبة بحيث أن سكان كيل ولبك ومجدبرغ وبرلين ودرسدن كانوا يتكلمون اللغة الصقلبية في العصور الوسطى. فالأمة الألمانية الحالية هي نتيجة لامتزاج كل هذه العناصر: فشمالها الغربي أقرب إلى أهل اسكندنافيا، وشرقها - شرقي نهر الإلبه - تقل فيه صفات النورديين وتغلب عليه الصفات الصقلبية أما الجنوب فتنتشر فيه الجماجم المستديرة التي يتحدر أصحابها من أصل أوراسي.

وهذه إيطاليا إن هي إلا نتيجة اختلاط بين عدد كبير من العناصر المختلفة. فالجنوب فيه غالبية من سكان البحر الأبيض المتوسط الأصليين. وأما الشمال فغالي الجنس هذا من حيث ما نعرفه عن سكان إيطاليا في أوائل عهدنا بالتاريخ. أما في الأزمنة التاريخية فقد دخل في تكوين سكان إيطاليا جماعات جاءت من حوض الدانيوب وأواسط أوروبا كالغاليين القدماء والقوط واللمبارديين (في القرنين الخامس والسادس للميلاد).

أما إنكلترا، وهي آخر مثل نقدمه، فيكفينا أن نشير إلى أن سكانها هم نتيجة اختلاط القلت والإنكليز والسكسون والجوت والدانيين والنرويجيين والنورمان (الفرنسيين). وإلى هذا أشار ديفو لما قال عن الإنكليزي أنه «بدأ من اختلاط جميع الأنواع والأجناس».

فهل بعد هذا يقال إنه ثمة «أمة» متحدرة من عنصر واحد؟ على أنه بعد الذي عرضناه نستطيع ان نقول ان اختلاف التاريخ العنصري لشعب ما لا يحرمه من صيرورته أمة ما دامت هذه العناصر قد اختلطت وامتزجت ببعضها ولم تقف من بعضها البعض موقف عداء، كما هي الحال في بعض الدول البلقانية التي لم تتحد شعوبها ومن ثم لم تنشأ فيها أمة موحدة رغم انها تعيش في بلاد واحدة (وحدة جغرافية) وتحت سلطة حكومة واحدة. ومثل هذا هنغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا.

ولعله من المفيد ان نشير هنا إلى أن النظرية العنصرية التي تفضل جنسا على آخر، والتي ترمي إلى السيطرة على كل امن تعتبره تابعا للجنس الاصلي - هذه النظرية لا تتفق ابداً مع القومية. فالقومية أساسها وحدة الشعور بين أفراد الأمة، وتلك تقوم على سيطرة جماعة واحدة على غيرها من الجماعات التي تساكنها وتعايشها ومن ثم كانت القومية العنصرية خطرا على السلم العالمي بينما القومية الصحيحة تهيئ اتباعها للقيام بواجبهم كجماعة - كأمة في سبيل المدنية والحضارة العالمية.

والدين عزا إليه بعض المفكرين أثرا كبيرا في إيجاد أمة. وقد لا يكون هذا بعيدا عن محجة الصواب إذا أخذنا أمثلة معينة. فلعل الخلاف الديني كان أحد العوامل التي أدت إلى فصل البلجيكيين عن الهولنديين، أو لعل ما يظهر على سكان اسكتلندا من الشعور بالوحدة القومية يعود إلى أثر الدين في نفوسهم. فقد يكون الذين عاملا من عوامل

التوحيد والربط على أننا إذا نظرنا إلى الأمر من الناحية الأخرى وجدنا أن هناك كثيرا من الأمم التي بلغت الوحدة القومية فيها درجة التمام والتي هي «أمم» و»دول قومية» من خير ما يمكن أن نعثر عليه - وجدنا ان هذه الامم يختلف أفرادها في نظرتهم الدينية. فألمانيا تغلب الكثلكة على جنوبها وتسود البروتستانتية في شمالها، ولكن ذلك لم يمنعها من أن تكون امة. وهذه إنكلترا تتألف من جماعة كاثوليكية صغيرة، نسبيا، وغالبية بروتستانتية وهي ما عرفنا من عراقة في الشعور القومي. بل هذه دول اوروبا الأخرى يستمتع افرادها بالحرية الدينية دون أن يضعف ذلك الاختلاف الفردي أو تلك المفارقة بين الجماعات قوميتها أو شعورها بأنها أمة في حدودها.

هذه العوامل التي عرضنا لها يمكن اعتبارها كلها أو بعضها متفرقة أو مجتمعة، مؤثرة في تكوين الشعور القومي. وقد يختلف أثرها باختلاف العصور التي تمر بالشعب الواحد. لكنها ليست على ما نرى العامل الرئيسي. وهنا يبدو لنا ان نسأل أنفسنا ما هو العامل الرئيسي في تكوين هذا الشعور العميق الذي يتجلى في تصرف الأفراد الذين تتكون منهم الأمة والذي يميزهم فيشعرون بكيانهم ووجودهم وحياتهم الخاصة أي يدركون أنهم «أمة» وأن لهم - «قومية».

نعتقد أن التاريخ واللغة هما العاملان الرئيسيان.

التاريخ بكل ما فيه - بحوادثه ورجاله وأبطاله، بانتصار الشعب وانكساره، بأفراح القوم وأتراحهم، بسراء الجماعة وضرائها، بالخير الذي نعمت به والشر الذي عمها. هذا. التاريخ وما فيه من ذكريات

وما يخلفه من تقاليد وما علاه من مآثر البطولة أو الدفاع المشترك ضد العدو، وما يرويه من قصص وأساطير وما يثيره في نفوس الناس من عواطف هذا التاريخ هو الذي يحيي نفوس أفراد الأمة ويبعث فيهم الروح القوي الوثاب ويدفعهم إلى الأمام. أسماء أبطالهم ومواطن معاركهم وأماكن كفاحهم المشترك هي التي توثق بينهم وتجعلهم يشعرون هذا الشعور بالوحدة والالفة. يمرون بمدنهم وقراهم فتوحي لهم بذكرى السنين وتنبعث من كل جزء من بلادهم أصوات الماضي تذكرهم بما قاموا به وما استمتعوا به وما ألموا من أجله.

على أن حوادث التاريخ الوطني تتغريل، قصداً أو بغير قصد، بحيث يعرف الناس مواطن القوة في ماضيهم وينسون مواطن الضعف. ومثال ذلك أن كل انكليزي يعرف ان انكلترا غلبت فرنسا في أيام لويس الرابع عشر، ولكن التقليد القومي يحذف من التاريخ الانكليزي حقيقة أخرى وهي أن الملك شارل الثاني أقام عند ملك فرنسا أسيرا. ومع أن وليم الثالث ملك إنكلترا حارب من أجل هولندا أكثر مما قاتل في سبيل إنكلترا فإن هذا الأمر لا يقال للإنكليز في مدارسهم.

ولا في الأحاديث العامة. لأن الاشارة إلى شارل ووليم بهذا الشكل يضعف من منزلهما كبطلين من أبطال التاريخ الإنكليزي القومي.

ما الذي يجعل الصربيين أمة ويحملهم على المطالبة بالاعتراف بكيانهم؟ أنها ذكرى أبطالهم مثل دوشان الذي يقدسه كل سربي، وأنها ذكرى معركة كوسوفا (١٣٨٩) التي انكسروا فيها والتي صرفوا بعدها

أربعة قرون وهم مستعبدون، ولكنهم ظلوا يحاولون ان يزيلوا أثرها عنهم حتى أتيح لهم ذلك في مطلع القرن الحاضر.

وما الذي جعل من الهولنديين أمة؟ أنهم من حيث جنسهم ومن حيث دينهم، بل ومن حيث لغتهم قريبون جداً من الألمان، ولكن هذا الجهاد الطويل الذي بذلوه في سبيل التخلص من النير الإسباني (في القرن السادس عشر) والذي اشترك فيه القوم جميعهم هو الذي يبعث في نفوسهم الحياة القومية والروح الوطنية فيحمل العالم على الاعتراف بهم أنهم أهل للسيادة القومية في بلدهم. هذا الجهاد وما فيه من اختبارات وتضحيات وفشل ونجاح هو سر هذا الارتباط فيما بينهم.

التاريخ المليء بذكرى الماضي المجيد وهو مبعث الأمل وهو سر اللهيب الذي يشتعل من أثره كل فرد حماسة وطنية قومية فلا يتقاعس عن القيام بواجبه متى دعا الداعي.

واللغة هي العامل الرئيسي الآخر. اللغة التي يتكلمها الشعب ويقرأها أفراده ويكتب بها مفكروه وينظم بها شعراؤه في سبيل نقل أثر التاريخ واختباراته إلى القوم - صغيرهم وكبيرهم فتاهم وفتاتهم - فتصير هذه الآثار جزءاً من حياة القوم الفكرية والروحية وعاداتهم الوطنية والخلقية وتصبح قوة تنجدهم عند الدعوة وثروة تغنيهم عند الحاجة وحيوية تنبثق من قلوبهم ونفوسهم فتضمهم إلى بعضهم وتربطهم معا.

واللغة انما تحتل هذه المنزلة من النفوس وتلعب هذا الدور لا على أنها ألفاظ فحسب، ولكن على أنها آداب وتقاليد وعادات و طرق تفكير ووسائل تعبير ولون من ألوان الشعور وفلسفة في الحياة. هذه اللغة هي جماع هذه كلها. وبقدر ما يتمكن الأفراد من لغتهم تنمو حياتهم المنبثقة من أعماق نفوسهم والخارجة من قلوبهم فتمتلئ بعد فراغ وتشبع بعد جوع وتغنى بعد فقر.

وبعد فما هي الامة؟ وما هي القومية؟ القومية في جوهرها وأصلها شعور. والأمة هي نتيجة هذا الشعور. هي نتيجة شعور الأفراد واعتقادهم بوجودها ولن يكون لهذا الشعور وجود إلا متى توفرت الصفات المشتركة التي تمكن الأفراد بأن يدركوا بأنهم يختلفون عن غيرهم. هذه الصفات المشتركة تبدأ بسكناهم بقعة من بقاع الارض يستمتعون بخيرها على نظام مشترك، ويرافق ذلك فلسفة في الحياة عامة أساسها التاريخ والتقاليد والاختبارات والأفكار واللغة والآداب المنتزعة صميم حياتهم الماضية والحاضرة التي تحدد لهم أهدافهم المستقبلية وتقيم لهم خطتهم في الحياة.

هذه الأمة هي التي أرادها مزيني بقوله إنها وحدة صالحة لتكون أساسا للتقدم البشري لأنها قادرة على خلق جزء من حضارة العالم: فإن هذه الحضارة تتكون من مجموع ما تنتجه الأمم في أدوار التاريخ المختلفة.

العروبة

•••

العـرب أمة أنتجتها ثلاثة عوامـل هي العنصر والرقعة والتاريخ.

سـكن العـرب، بـادئ ذي بـدء، الجزيـرة العربيـة في حدودهـا المعروفـة الواضحـة. فمـلأوا جبالهـا وأوديتهـا وسـهولها وصحاريهـا وتأثـروا بطبيعتهـا. فتفرقـوا تفرقهـا وتنابـذوا تنابذهـا واختصمـوا خصومتهـا وكرمـوا بقـدر مـا بخلـت عليهـم. عمروهـا حيـث اسـتطاعوا إلى ذلـك سـبيلا. فكانـت لهـم في اليمـن والحجـاز مـدن، وكانـت لهـم في نجـد وغيرهـا قـرى، واكتفـوا بالإقامـة المؤقتـة حـول المـاء والـكلأ في بقـاع أخـرى منهـا. وكانـت لهـم آدابهـم وتقاليدهـم وكانـت لهـم منازلهـم ومراتعهـم وكانـت لهـم مذاهبهـم ولغتهـم.

وفي الأزمنـة المتوغلـة في القـدم أخـذت جماعـات منهـم تنتـشر في الربـوع المصاقبـة للجزيـرة. فـكان اللخميـون في ديـار مرهـم العـراق وكان منهـم الأنبـاط والغساسـنة في مشـارف الشـام وكان منهـم الحرانيـون في حـران وكان منهـم أهـل تدمـر فيـما بـين العـراق والشـام. وفي هـذه المـدن المنتـشرة آثارهـا والقائمـة أنقاضهـا، داخـل الجزيـرة وخارجهـا، قامـت دولهـم وترعرعـت مدنيتهـم ونمـت تجارتهـم وزراعتهـم وصناعتهـم. أخـذوا في هـذه المـدن وأعطـوا فكانـوا حلقـة اتصـال بـين الاروميـة الاصليـة وبـين العـالم الخارجـي وكانـت لهـم مـع جيرانهـم الاقويـاء مـن أهـل فـارس وبيزنطيـة أيـام، قرعـت فيهـا السـيوف وتكـسرت فيهـا النصـال عـلى النصـال، وانخذلـوا حينـا وانتـصروا أحيانـا.

وهـذا الانتشـار للعـرب في هـذه الديـار كان مسـتمرا ومتتابعـا. ولذلـك نجـد النـاس فيهـا ينطقـون بلسـان عـربي مبـين ويتناشـدون الشـعر العـربي البليـغ قبـل الإسـلام بقـرون.

فلـما ظهـر الإسـلام بـين العـرب، وتأثـروا بهديـه، وخرجـوا مـن الجزيـرة ينشرونـه للنـاس انضـم عـرب الحـيرة النصـارى إلى عـرب الجزيـرة السـلامين وحـارب الجميـع جنبـا إلى جنـب ضـد الفـرس. وحـدث مثـل هـذا في مشـارق الشـام فاشـترك الغساسـنة مـع إخوانهـم ضـد البيزنطيـين. وحمـل العـرب عـلى مناوئيهـم فلـم يمـر قـرن واحـد مـن الزمـن بعـد وفـاة النبـي وحتـى كانـت خيولهـم قـد وصلـت نهـر السـند وأواسـط آسـيا شرقـا، وجبـال البرانيـز غربـا. وهـذا الفتـح العسـكري رافقـه انسـياح العـرب في البـلاد المفتوحـة فاسـتقروا فيهـا جماعـات وقبائـل. عـلى أننـا يجـب أن نذكـر بهـذه المناسـبة أمريـن: الأول هـو أن الجماعـات العربيـة كانـت أكـثر عـددا وأكـبر نفـرا في العـراق وسـورية ومـصر منهـا في الاقطـار الاخـرى التـي كانـت أبعـد عـن الجزيـرة نفسـها. والثـاني هـو أن هـذا الانسـياح لم يقتـصر عـلى فـترة الفتـح التـي يمكـن أن يقـال عنهـا انهـا انتهـت في أول القـرن الثالـث للهجـرة (القـرن التاسـع للميـلاد)، بـل اسـتمرت هجـرات الجماعـات العربيـة شـأنها في ذلـك شـأن الهجـرات قبـل الإسـلام لكنهـا في هـذه الفـترة كانـت أبعـد مـدى بحكـم سـيطرة العـرب عـلى بقـاع أوسـع. وبالإضافـة إلى هـذا الرحيـل المسـتمر فـإن الروايـة التاريخيـة قـد حفظـت انـا آثـار رحـلات وهجـرات جـاءت بعـد الفتـح وكانـت عـلى شـكل قـوي ونطـاق واسـع. منهـا موجتـان تسـتحقان الذكـر، الاولى موجـة في القـرن الرابـع للهجـرة (القـرن

العـاشر للميـلاد) اتجهـت محـو بـلاد المغـرب وتظهـر آثارهـا «في تغريبـة بنـي هـلال» وأخـرى موجـة في العـصر الصلاحـي لعلهـا اسـتقرت في سـوريا بشـكل خـاص.

فالهجـرات هـذه ومـا كان للعـرب مـن سـلطان سـياسي يـسر للعنـصر العـربي أن ينتـشر ويتسـع نطـاق تأثـيره. ولسـنا نقـول بانـه قـضى عـلى كل عنـصر كان هنـاك، ولكـن الحقيقـة الثابتـة هـي أنـه تمثـل جميـع الشـعوب الأخـرى وطبعهـا بطابعـه

لكـن السـلطان السـياسي العـربي انحـسر عـن طـرفي العـالم الإسـلامي آنئـذ في الـشرق والغـرب. فإيـران ومـا إلى الـشرق منهـا وإسـبانيا خرجـت واسـتعادت حريتهـا السياسـية. فأمـا الطـرف الشرقـي فاحتفـظ مـن آثـار الفتـوح العربية بالإسـلام وأمـا الطـرف الغـربي فقـد كان خروجـه، فيـما بعـد تامـا. وظلـت البـلاد الوسـطى وقـد اسـتقر فيهـا ثلاثـة أشـياء ثابتـة الأثـر: العنـصر الـذي غلـب عـلى سـكانها، والإسـلام الـذي انتـشر فيـما بينهـم، واللغـة العربيـة التـي هزمـت اللغـات الاخـرى. والحـدود التـي انتهـت إليهـا سـيادة العـرب العنصريـة واللغويـة هـي جبـال فـارس شرقـا وجبـال أرمينيـا وطـوروس شـمالا وجبـال أطلـس غربـا. ويخيـل إلينـا أن السـبب الرئيـسي في وقـوف انتشـار اللغـة العربيـة عنـد جبـال فـارس شرقـا هـو طبيعـة هـذه الجبـال فهـي النهايـة الغربيـة لنجـد واسـع - هـو مجـد إيـران - والبدايـة الشرقيـة لسـهل منخفـض عنهـا - هـو سـهل العـراق. فلـم يكـن مـن السـهل ان ترحـل جماعـات كبـيرة مـن سـهل العـراق الخصـب الـدفيء إلى نجـود إيـران القاحلة البـاردة. ففضـل العـرب الاسـتقرار في البلـد الخصيـب ونحـن نعـرف أن

عـدد العـرب الذيـن كانـوا يقطنـون خراسـان وغيرهـا في أيـام الأمويـين مثـلا، وهـي أزهـى أيـام العـرب، كان ضئيـلا بحيـث انهـم لم يسـتطيعوا الوقـوف أمـام حملـة الفـرس العنيفـة ضدهـم. أمـا جبـال طـوروس فقـد وقفـت مـن الاصـل سـدا في وجـه العـرب، فلـم يتجاوزهـا كثـيرا. ولعـل العامـل المناخـي - بـرد الجبـال القـارس - حـال دونهـم والمثابـرة عـلى حربهـا مثـل مثابرتهـم عـلى حـرب البقـاع الاخـرى. فوقـف فتحهـم العسـكري والعنـصري واللغـوي عندهـا. وحتـى الفتـح الدينـي - اي انتشـار الاسـلام لم يتـم في بـلاد الأناضـول عـلى أيـدي العـرب وانمـا عمـل عـلى نـشره الاتـراك - السـلاجقة منهـم والعثمانيـون.

والـذي يمكننـا ان نخلـص إليـه مـن هـذا العـرض الموجـز هـو أن العـالم العـربي الحـالي، مـن جبـال فـارس إلى جبـال أطلـس سـكانه مـن الناحيـة العنصريـة عـرب. عـرب بمعنـى أن العنـصر العـربي الاصـلي اسـتطاع، بوسـاطة الاختـلاط والتـزاوج والجـوار، أن يتغلـب عـلى الشـعوب التـي كانـت هنـاك ويعربهـا. فهـم عـرب عـلى اسـاس الاصـل والفـرع - عـرب ومعربـون.

عـلى أن هـذا التغليـب والتعريـب لم يكـن كـما قلنـا في مفتتـح هـذا الفصـل، نتيجـة انتشـار العنـصر العـربي فحسـب، ولكـن عاملـين آخريـن اشـتركا في تكوينـه هـما الرقعـة والتاريـخ.

والرقعـة التـي يقطنهـا العـرب اليـوم يمكـن ان تقسـم إلى قسـمين رئيسـين: الشرقـي ويبـدأ مـن جبـال فـارس وينتهـي في صحـراء مـصر الغربيـة، والغـربي ويبـدأ مـن طرابلـس وينتهـي في مراكـش.

وصحـراء ليبيـا تكـون عـلى هـذا، الفاصـل بـين الجـزء الشرقـي والغـربي. ونحـن إذا أخذنـا الجـزء الشرقـي وجدنـا التشـابه بـين اجزائـه كبـيرا جـدا وحـدوده الطبيعيـة واضحـة كل الوضـوح. فسـهل العـراق وسـهول سـورية وسـهل وادي النيـل ترجـع إلى عوامـل طبيعيـة وادوار جيولوجيـة واحـدة في تكوينهـا. ونجـد بـلاد العـرب ترتكـز عليـه باديـة الشـام وجبـال سـورية بقـدر مـا يعتمـد عـرب سـورية عـلى الجزيـرة العربيـة في حياتهـم القوميـة والروحيـة. وفي شـمال هـذا الجـزء وشرقـه نجـد أن الحـدود الطبيعيـة يرجـع وجودهـا إلى عوامـل جيولوجيـة واحـدة، فهـي جبـال طـي أو التـواء حديثـة العهـد

أمـا في الجـزء الغـربي فيتفـق توزيـع سلاسـل الجبـال في المنطقـة الممتـدة مـن تونـس إلى مراكـش مـن حيـث اتجاههـا وحصرهـا الأوديـة بينهـا ونـوع تربتهـا.

ونـرى مـن هنـا أن بـلاد العـالم العـربي وحـدة جغرافيـة واضحـة الحـدود - الجبـال والبحـر المتوسـط والصحـراء الكـبرى الافريقيـة والبحـر العـربي وخليـج فـارس - بينـة المعـالم متفقـة في مناخهـا، فهـو إقليـم البحـر الأبيـض المتوسـط باسـتثناء المناطـق التـي تميـل إلى التطـرف في إحـدى النواحـي مثـل صحـراء العـرب أو مرتفعـات لبنـان وأطلـس.

وهـذه الرقعـة لهـا ميـزات اقتصاديـة هامـة فهـي غنيـة، وثروتهـا منوعـة. ففيهـا مـن المعـادن في جبـال أطلـس الحديـد والنحـاس وفيهـا البـترول في العـراق وفيهـا الأمـلاح المنتـشرة في البحـر الميـت وغـيره. وغلاتهـا النباتيـة تشـمل الحبـوب الرئيسـية والقطـن والزيـوت والفواكـه وكل هـذه عـلى

اختلاف أنواعها. وفيها مصادر للقوة المسائية كبيرة. وهي فضلا عن ذلك ذات أهمية خاصة من حيث إنها مركز رئيسي لطرق المواصلات العالمية - البرية والبحرية والجوية. وهذه السكك الحديدية والطرق المعبدة يخترقها، خاصة في جزئها الشرقي، وقناة السويس تصل العالم الأوروبي بالعالم الشرقي وهي في قلبها. وهذه المطارات منتشرة في أنحائها.

والذي ينقص هذه الرقعة العربية هو أن ينظم توزيع ثروتها بحيث تأخذ البلاد ما تحتاجه ثم يصدر الباقي مجموعة كاملة إلى البلاد التي تستطيع ان تستورد منها ما يلزمنا من آلات وغيرها. وعندئذ تظهر الفائدة التي يجنى من عمل من هذا النوع.

ولننتقل الساعة إلى بحث أثر التاريخ في خلق القومية العربية.

وهذه البلاد التي يقطنها الشعب العربي لها تاريخ متغلغل في القدم. ففيها خطا الإنسان الخطوات الأولى في سبيل المدنية، فاهتدى إلى استعمال المعادن في صنع أدواته وآلاته، وفيها اخترع حروف الهجاء فكتب آراءه وأفكاره، وفيها بني أول بيت وشاد أول معبد وأقام أول قصر، وفيها تفنن في نقوشه ورسومه ونحته لأول مرة، وفيها فتح أول مدرسة ونظم أول قصيدة وأنشأ أول كتاب، وفيها نظم أول حكومة.. وهذه الدول التي قامت في وادي النيل وأرض الرافدين وفي سهول سورية ومرتفعاتها حاولت كل منها بدورها أن يكون لها سلطان على جاراتها فكان من جراء ذلك أن قامت الإمبراطورية المصرية التي وصلت جيوشها إلى الفرات وقامت بعدها إمبراطورية الحثيين التي

امتـد نفوذهـا إلى أواسـط سـورية وقامـت إمبراطوريـة الاشـوريين التـي بلغـت حدودهـا مـصر ومثلهـا كانـت دولـة الكلدانيـين. فلـما دخلـت فـارس القدمـة حلبـة الفتـوح امتـد سـلطانها مـن حـوض السـند شرقـا إلى صعيـد مـصر غربـا. وفي كل حالـة كان الفتـح فتحـا عسـكريا سياسـيا وكانـت الدولـة تعتمـد في دوامـه واسـتمراره عـلى حامياتهـا وولاتهـا والجيـوش المرتزقـة التـي كانـت تقـوم بعمـل الشرطـة دون أن يكـون لهـا أثـر في حيـاة الشـعب الاجتماعيـة والروحيـة والفكريـة

ثـم جـاءت هـذه البـلاد قوتـان مـن الخـارج الاولى اليونـان والثانيـة الرومـان. أمـا الاولى فقـد جـاءت مـع الاسـكندر وقـد شـمل سـلطان اليونـان مـصر وسـورية والعـراق، مـن البـلاد التـي يعنينـا أمرهـا الآن. وكان الاسـكندر ومثلـه كبـار رجالـه وخلفـاؤه يحملـون الحضـارة اليونانيـة إلى بلـدان الـشرق، وكانـوا يؤمنـون بصلاحهـا للعـالم أجمـع. وقـد رأوا، وفي مقدمتهـم الإسـكندر نفسـه، أن خـير سـبيل لنـشر مدنيـة اليونـان هـو بنـاء مـدن تقيـم فهـا جماعـات يونانيـة فتكـون هـذه بمثابـة مراكـز ينتـشر منهـا نـور والعرفـان بـين سـكان هـذه البـلاد. وتأثـر سـكان المـدن الكبـيرة مـن أهـل البـلاد الأصليـين بالحضـارة اليونانيـة وأقبلـوا عليهـا فـكان مـن ذلـك أن انتـشرت بينهـم العـادات اليونانيـة واللغـة اليونانيـة وصـارت هـذه لغـة الحـكام والتجـار والادبـاء والشـعراء والعلـماء ومـن حـاول أن يتقـرب منهـم عـلى نحـو مـا كنـت تـرى في أنطاكيـة وسـلوقية والاسـكندرية وصيـدا وغيرهـا. لكنـك متـى خرجـت مـن المدينـة وتجـاوزت ضواحيهـا وأرباضهـا لقيـت النـاس يتكلمـون بلغاتهـم المحليـة ولهجاتهـم الخاصـة. فالقـروي خـارج

أنطاكيـة كان يرطـن بالآراميـة والـزراع والراعـي خـارج صيـدا كان يتكلـم الفينيقيـة، ومـن ثـم أصبحـت هـذه المـدن الهلينيـة اليونانيـة جـزرا في بحـر مـن حضـارة البـلاد الاصليـة. وإلى هـذا يرجـع السـبب في أننـا لا نجـد شـعورا قوميـا في سـورية أو العـراق، أو حتـى في مـصر، في العـصر الهلينـي.

ولمـا جـاء الرومـان واحتلـوا هـذه البـلاد جاؤهـا بلغـة جديـدة هـي اللغـة اللاتينيـة التـي لم تلبـث أن أصبحـت لغـة الحكـم وأداتـه بينـما ظلـت اليونانيـة لغـة الفكـر وسـبيله. ولم ينشـأ في أيـام الرومـان ولا في أيـام حلفائهـم البيزنطيـين شـعور قومـي لا في مـصر ولا في سـورية ذلـك أن وسـيلة التفاهـم بـين جميـع السـكان لم تكـن واحـدة فظلـت آراؤهـم وعاداتهـم وتقاليدهـم وامانيهـم متباينـة.

وفي السـنة ١٥ للهجـرة (٦٣٦ للميـلاد) انتـصر العـرب عـلى البيزنطيـين في اليرمـوك وعـلى الفـرس الساسـانيين في القادسـية وبعـد بضـع سـنوات كانـت خيولهـم قـد وصلـت هضبـة إيـران شرقـا وصحـراء ليبيـا غربـا

امتـدت الفتـوح العربيـة الاسـلامية قرنـا وبعـض القـرن بعـد وفـاة النبـي وكانـت متعـددة النواحـي منوعـة النتائـج. فقـد كانـت فتحـا عسـكريا امتـد إلى الهنـد والصـين شرقـا وبحـر الظلـمات غربـا. وكانـت فتحـا عنصريـا بمعنـى أن الجنـس العـربي تغلـب عـلى الاجنـاس الاخـرى وتمثلهـا في بعـض الأقطـار دون الأخـرى، وكلـما قـرب القطـر مـن بـلاد العـرب نفسـها كان اسـتيطان العـرب فيـه أكـثر وتأثـره بالعنـصر العـربي اكـبر. وكانـت فتحـا لغويـا: فقـد انتـشرت اللغـة العربيـة في الأقطـار المفتوحـة انتشـارا سريعـا. وإذا كان ثمـة مـن يجـب أن يذكـر بالخـير في هـذه المناسـبة فالفضـل يعـود إلى عبـد الملـك

بـن مـروان والمأمـون. فـالأول عـرب الادارة فجعـل اللغـة العربيـة لغـة الدولـة الرسـمية والثـاني نقـل العلـوم إلى العربيـة فعـرب الحركـة الفكريـة والعقليـة. عـلى أنـه يجـب أن نذكـر فتحـا رابعـا تـم في هـذه الفـترة هـو الفتـح الدينـي. فقـد انتـشر الإسـلام في الأقطـار المفتوحـة لأسـباب كثـيرة لا يتسـع المجـال لبحثهـا الآن.

هـذه الأمـور هـي التـي عينـت اتجـاه الأمـم والشـعوب خضعـت للعـرب. فتلـك التـي خضعـت لسـلطان العـرب السـياسي وحـده حاولـت الثـورة أو الخـروج فلـما واتتهـا الظـروف اسـتردت حياتهـا الأولى. وبعـض هـذه الشـعوب اسـتقلت سياسـيا لكنهـا احتفظـت مـن الفتـوح العربيـة بالفتـح الدينـي، إذ كان الإسـلام قـد تغلغـل فيهـا. أمـا البـلاد التـي أصبحـت عربيـة دمـا ولغـة وفكـرا وعقـلا فهـي التـي تحدهـا جبـال فـارس شرقـا وجبـال طـوروس شـمالا ثـم تمتـد غربـا فتشـمل مـصر وشـمال أفريقيـا. كلـه وهـذه الحـدود اللغويـة تتفـق مـع حـدود طبيعيـة كان اجتيازهـا صعبـا عـلى عـدد كبـير مـن العـرب، فلـم يقطنـوا وراءهـا جماعـات كبـيرة، ولذلـك اقتـصر تأثيرهـم فيهـا عـلى الديـن أو السياسـة.

ولسـنا في هـذه العجالـة بمعـرض درس التاريـخ العـربي القومـي درسـا مفصـلا أو حتـى موجـزا، ولكـن الـذي يعنينـا أمـره هـو

أن نقـف لحظـات معـدودة عنـد تاريـخ هـذه البـلاد العربيـة محاولـين أن نتبـين الخطـوط الرئيسـية في تطورهـا القومـي. احتـل العـرب هـذه الاقطـار واسـتقروا فيهـا وانتـشر فيهـا الإسـلام وأقبـل النـاس عليـه فاعتنقـوه فـكان لهـم منـه هـدى دينـي وكان لهـم منـه قـوة روحيـة، وكان لهـم منـه أن أثـار

فيهم ما كان قد كمن من نشاطهم فأصبحوا، تحت تأثيره، قوة عاملة نشيطة في تركيز أصول الحضارة اليونانية والفارسية والهندية التي وصلت إليهم، ثم كان لهم بعد ذلك حضارة عربية اسلامية. وترتب على انتشار الاسلام في العراق وسورية ومصر وشمال افريقيا ان انتشرت اللغة العربية، لغة القرآن الكريم والحديث الشريف بين أهل هذه البلاد. وكان انتشار اللغة العربية شاملا للسكان جميعهم في المدينة والقرية والريف فتكلم بها التاجر والزراع والراعي، وتغنى بها الشاعر واستعملها القصاص ونودي بها إلى الصلاة وأقيمت بها شعائر العبادة ورتل بها القرآن. فوجدت سبيلها إلى نفوس الناس وقلوبهم وعقولهم. حتى أن من بقي على دينه من أهل البلاد لم يجد بدا من أن يتكلم اللغة العربية ويقرأها ويكتب بها. ومع أن انتشارها لم يعم البلاد في وقت واحد فإنها لم تلبث أن أصبحت لغة المجتمع بكامله في حكومته وإدارته وقضائه، ومدرسته وعلمه وأدبه.

وتاريخ هذه البلاد منذ أن احتلها العرب تاريخ ضخم فيه الخير والشر، وفيه الحسن والقبيح، وفيه الصحف البيض والصحف السود، شأن كل تاريخ لكل أمة بلغت من طول المدة وسعة الرقعة ما بلغه العرب وبلاد العرب.

وقد يكون هناك تاريخ للنصرانية على أنها دين وفلسفة وفكرة، وقد يكون هناك تاريخ للإسلام على أنه دين وفلسفة وفكرة، ولكن ليس ثمة تاريخ للنصارى وآخر للمسلمين في هذه البلاد. فما كانت الحوادث التي تقع في العراق أو سورية أو مصر تفرق بين مسلم ونصراني، سواء

في ذلك ما ينفع منها وما يضر. ولا كانت الخيرات تتخطى جماعة إلى الاخرى ولا كانت المصائب تقع لفريق دون آخر. فهذه سورية تتعرض في العصور الوسطى لهجومين عنيفين الواحد من الغرب على أيدي الصليبيين والآخر من الشرق على أيدي التتار - فما وقع شر الخطر الغربي إلا على كل البلاد وأهلها وما تأثر بالخطر الشرقي الا جميع السكان على اختلاف نحلهم ومذاهبهم. فالمدن التي دمرتها الحروب كان سكانها من أهل البلاد على اختلاف عقائدهم. والجماجم التي بني منها المغول الأهرام المختلفة في بغداد وتكريت وحلب كانت جماجم من وقع السيف على رؤوسهم دون أن يفرق السيف بين مذاهبهم.

والضرائب التي فرضها الفاتحون أو ابتزها الغاصبون دفعها أهل البلاد جميعهم دون ان يفرق الفاتح أو الغاصب بين اتباع دين وآخر. ومهرة الصناع والمهندسين وأهل الفن والعلم الذين حملهم تيمور لنك من دمشق حول السنة ١٤٠٠ للميلاد جمعهم من سكان المدينة دون أن يخص فئة منهم بنسبة معينة. والقحط والجوع اللذان كانا يصيبان هذه البلاد، ولا يزالان، لا يسيئان إلى طبقة من الناس دون أخرى.

ومن هنا نرى أن هذا التاريخ الذي تعرض له سكان العالم العربي كان تاريخا مشتركا. اما انه كانت فيه أغلاط أو أخطاء فذلك أمر طبيعي كما قلنا قبلا.

وهذا التاريخ المشترك هو الذي خلف لنا نحن العرب ذكريات قومية واختبارات وطنية وأدبا قوميا وقصصا شعبيا وشعرا حماسيا كتب كله بلغة عربية واحدة، وقرى كله على أنه نتاج أمة واحدة، وتمركز كله

حول أبطال هذه الامة، ودار كله حول جبال البلاد ووهادها وسهولها وهضابها وقفارها وأنهارها وشواطئها. فليست ثمة بقعة يستطيع الواحد منا أن يمر بها الا وأعادت إلى نفسه ذكرى معركة نصرنا فيها أو خذلنا، أو ذكرى بطل ضحى بنفسه في سبيلنا، أو ذكرى عالم قضى عمره في تثقيفنا، أو ذكرى أديب أفنى أيامه ولياليه في سبيلنا، أو ذكرى مدينة، أو قرية، أو قلعة مات ابناؤها كي نحيا وقضوا كي نعيش. وليس من شيء في هذه البلاد إلا وقد روته دماء زكية وعطرته أنفاس طاهرة من اولئك الاجداد البررة الذين خلفوا لنا بلادا، وتاريخا، ووطنا، وقومية. وهذا التاريخ المشترك هو الذي وحد تقاليدنا وعاداتنا فقربنا من بعضنا البعض. وهو الذي نرجع إليه لنستمد منه اختباراتنا ومثلنا العليا والمقاييس التي نحكم بها على الخير والشر والحسن، والقبح، والفضيلة، والرذيلة. وهو الذي أورثنا هذا التضامن في الشعور والتكاثف في العاطفة والتآزر عند الشدائد والتآخي عند المصائب.

وهو، قبل كل شيء وبعد كل شيء، الذي ترك لنا لغتنا العربية فوحد تفكيرنا وعقليتنا وآراءنا. واللغة في معناها الواسع ليست مجرد ألفاظ وعبارات تنتظمها كتابتنا. ولكن اللغة عادات وتقاليد وآداب، وتفكير، وتشريع، ومعاملة. فاللغة هي الحضارة والثقافة ووحدة اللغة هي وحدة الفكر. وهذا الذي يكون الأمة في حياتها العقلية والعاطفية.

فتاريخنا هو الذي خلقنا وهو الذي عين حياتنا وهو الذي حدد رسالتنا. ولا سبيل لنا إلى فهم حياتنا فهما صحيحا، وتأدية رسالتنا على

الوجـه الأمثـل، إلا متـى عـرف كل فـرد منـا تاريخـه القومـي وعـاد إلى أبطاله ورجالـه ليسـتوحيهم ويسـتلهمهم: والا متـى عـاد إلى تـراب بـلاده يتشـممه ليحـس فيـه روحـه ونفسـه وحياتـه، والا متـى عـاد إلى أدبـه يسترشـد بـه.

نحو المستقبل

•••

نحـن أمـة. نحـن أمـة لأننـا وحـدة روحيـة: لنـا بـلاد نقطهـا وتاريـخ نرجـع اليـه ولغـة حيـة نتكلمهـا وأدب نسـتعيذ بـه وذكريـات نتغنـى بهـا وآمـال مشـتركة نصبـو الى تحقيقهـا ومثـل عليـا متفقـة نسـعى اليهـا وقـوة نبذلهـا في سـبيل آمالنـا ومثلنـا وإرادة تحملنـا عـلى السـير في سـبيل الوصـول إلى مـا نؤمـل.

علينـا أن نعنـى بتاريخنـا. وفهـم هـذا التاريـخ يتطلـب مـن كل واحـد منـا أن يفهـم الإسـلام فهـما صحيحـا، لأن الإسـلام كان الدافـع الأول والباعـث الرئيـسي إلى توحيـد العـرب وإخراجهـم مـن جزيرتهـم وانتشـارهم في فضـاء اللـه الواسـع ليـؤدوا رسـالتهم نحـو العـالم كلـه. علينـا ان نتقـن لغتنـا: وإتقـان هـذه اللغـة يقـضي بـأن يقبـل كل واحـد منـا عـلى القـرآن الكريـم فيفهمـه فهـما صحيحـا. أمـا المسـلم فلـه عـلى ذلـك أجـره عنـد ربـه واما الباقـون فلهـم عـلى ذلـك أجرهـم عنـد نفوسـهم وعنـد أبنائهـم الذيـن يربونهـم عندئـذ تربيـة عربيـة خالصـة.

نحـن أمـة. وعـلى هـذا لنـا الحـق كل الحـق في أن تكـون لنـا عـلى نفوسـنا وفي بلادنـا سـيادة تامـة ولنـا الحـق كل الحـق في أن نقـرر مصيرنـا وشـؤوننا عـلى ضـوء تاريخنـا وعـلى ضـوء مـا نقتبسـه مـن مدينـة العـالم الحـاضر. وبذلـك نتمكـن مـن القيـام بواجبنـا نحـو العـالم الحـر فنخـدم الحضـارة العالميـة الحديثـة عـلى نحـو مـا خدمناهـا في سـالف العصـور.

وإذا كانـت الأحـوال المحيطـة بنـا والظـروف التـي نعيـش فيهـا تحـول دون

تحقيق هذا كله فليس لهذه الأحوال والظروف أن تنسينا اننا امة لنا حق في ذلك كله

قال النبي: «من رأى منكم منكرًا فليقومه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». فهل لي ان أدعو أبناء قومي وبني أمتي إلى أضعف الإيمان!

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان